Journal of Tourism, Hotels and Heritage (JTHH)
Vol. 4 No. 1, (2022) pp 155-196.
Journal Homepage: https://sjs.journals.ekb.eg

رؤية جديدة للمراسلات التدوينية في مصر المملوكية "القصص نموذجًا"
(٦٤٨- ٩٢٣هـ /١٢٥٠-١٥١٧م)

محمد حماد
مدرس – المعهد العالي للسياحة والفنادق وترميم الآثار – ابو قير

معلومات المقال

الكلمات الدالة:
المرسلات التدوينية
مصر المملوكية
قصص

(JTHH)
Vol. 4 No. 1, (2022)
pp XX-XX.

ملخص البحث

منذ النشأة الأولي للحضارة الإسلامية؛ احتفظ العقل الجمعي بممارساته التقليدية وإن اختلفت الأداة، ففي تاريخنا المعاصر نرى تنوع في كافة المراسلات التدوينية اعتمدت على مدى التطور الحادث في فكر البشرية، استطاعت أن تستنسخ كافة العوائد الأولى ومنها تلك الوسائط مثل: الصحائف، والرسائل، والقصص التي ركزت الدراسة عليها لمحاولة استنطاقها بما تشتمل عليه من: ممارسات للعمل السياسي، وملامح للتواصل والتشارك الجمعي، المنطلق من قواعد التداول الثقافي داخل فضاء الحضارة المصرية في العصر المملوكي. وتتمحور الدراسة الحالية حول تلك الحقبة التاريخية، والتي تبدأ بالتعريف اللغوي والاصطلاحي للقصص، ثم البداية التاريخية لاستخدام القصص في مصر الإسلامية حتى قيام الدولة المملوكية التي صار استخدام القصص فيها جزءًا أساسيًا في كثير من مناحيها، فكانت لها أثرًا لتوثيق الواقع الطبقي للمجتمع المملوكي، مع تلبية لرغبات واحتياجات تلك الطبقات المختلفة، كما وثقت لنا بعض أسباب التمردات والانتفاضات الشعبية، وأكدت على مشاركتها في شؤون الحكم والإدارة، كما أشارت الدراسة أيضًا إلى كيفية حركة القصص بين الخاصة، مع تقديم صورة واضحة عن الشكل العام لها، ومكان وكيفية عرضها على من يتولى مسؤولية النظر فيها.

١ – الدراسات السابقة

اشتملت بعض الدراسات السابقة على ذكر واستخدام القصص، لكنها في مجملها جاءت في اطار يتعلق بالأمور القضائية الخاصة بالمظالم، ومن تلك الدراسات على سبيل المثال لا الحصر: دراسة بعنوان النظم القضائية بمصر في عصر سلاطين المماليك لعبد الخالق حسين محمد،[١] ونظر المظالم منذ بداية العصر الإسلامي حتى نهاية العصر المملوكي في ضوء البرديات العربية، لمحمد محمد مرسى على[٢]، وأخرى بعنوان الوظائف الدينية في مصر عصر المماليك الجراكسة وظيفة القضاء نموذجًا(٧٤٨-٩٢٣هـ/١٣٤٧م-١٥١٧م) لنسمه عمر سعد المغربي،[٣] وغيرها من الدراسات التي تحدثت عن المظالم.

(١)أطروحة دكتوراه، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٩٨١م.
(٢) مجلة مركز الدراسات البردية والنقوش، جامعة عين شمس، مصر، مج٣٣، ٢٠١٦م.
(٣)أطروحة ماجستير، كلية دار العلوم، جامعة المنيا، ٢٠١٩م.

منهجية الدراسة

اعتمدت الدراسة على المنهج التاريخي وأدواته من التحليل، والاستقراء، والاستنباط والمقارنة.

٢- هدف الدراسة

تهدف الدراسة إلى تسليط الضوء على القصص كأحد المراسلات التدوينية، كوسيط للاستخدام المتنوع بين طبقات المجتمع المختلفة في العصر المملوكي.

٣- القصص في اللغة والمصطلح

القِصَص بكسر القاف جمع القِصَّة، والقِصَّةُ: التي تُكتَب، والجملةُ من الكلام[٤]، والحديثُ، والأمرُ، والخبرُ، الشأنُ[٥]، وحكاية مكتوبة طويلة تُستمد من الخيال أو الواقع أو منهما معًا،[٦]وخصلة من الشعر، وشعر مقدم الرأس.[٧] أما القَصَصُ بفتح القاف، مصدر قَصَّ، والقَصَّ هو الصدر، وقَصَصت الشعر سويته بين كل شعرةٍ.[٨] أما القُصَّة بالضم فهي النَّاصية، والخُصلة من الشعر.[٩] ويذكر أبو هلال العسكري أن القصص اتباع الشيء بالشيء، وسمي الخبر الطويل قصصًا، لأنه يتبع بعضه بعضًا حتى يطول، عندئذ يقول السامع "هذا قصص" وهي أيضًا الخبر عن الأمور التي يتلو بعضها بعضا، ويقال هذه قصة الرجل: أي ما اشتمل عن مجموع أمره، وبالتالي فإن مادة قصص تقوم على التتبع، سواء كان التتبع ماديًا كقص الأثر والشعر، أو معنويًا كقص الأخبار والكلام.[١٠] ومن اسم القصة يأتي الفعل قاصُّ الذي يأتي بالقِصَّة ويتتبَّع معانيها وألفاظها، وبالتالي يماثل قصاص الأثر، وهو يتتبع آثار الأقدام على الأرض ليصل إلى نهايتها فكليهما يتتبع الحدث من البداية حتى النهاية.[١١]

---

(٤) ابن منظور(أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن على)، (ت٧١١هـ/١٣١١م)، لسان العرب، دار المعارف، ١٩٩٤م، ج٧، ص٧٣-٧٤.

(٥) المصدر السابق، ص٧٤.

(٦) إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، ط٤، مكتبة الشروق، ٢٠٠٤م ، ج٢، ص٧٤٠.

(٧) ابن سيده(أبو الحسن علي بن إسماعيل)، (ت٤٥٨هـ/١٠٦٦م)، المخصص، تح: خليل إبراهم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ج١، ص٨٧؛ السيوطي(عبد الرحمن بن أبي بكر)، (ت٩١١هـ/١٥٠٥م) المحاضرات والمحاورات، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م، ص١٢١.

(٨) ابن فارس(أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني)، (ت٣٩٥هـ/١٠٠٥م)، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م، ج٥، ص١١.

(٩) المصدر السابق، ص١١؛ ابن سيدة، المخصص، ج١، ص٨٧.

(١٠) أبو هلال العسكري(الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد)، (ت٣٩٥هـ/١٠٠٥م)، الفروق في اللغة، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط٥، ١٩٨٣م، ص٣٣-٣٤؛ السعيد شعبان الدسوقي إبراهيم، الأسلوب القصصي وتوظيفه في الخطاب الدعوي، حولية كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية، جامعة الأزهر، ع٣٣، ٢٠١٤م، ص٨-٩.

(١١) مجد الدين ابن الأثير(أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد)، (ت٦٠٦هـ/١٢١٠م) النهاية في غريب الحديث والأثر، تح: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، لبنان، ١٩٧٩م، ج٤، ص٧٠؛ ابن منظور، لسان العرب، ج٧، ص٧٤؛ جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، نشر جامعة بغداد، ط٢، العراق، ١٩٩٣م، ج١٦، ص٥.

أما **اصطلاحيًا**، فقد استخدمت لفظة القصص للدلالة على طلب أو التماس أو شكوى يرفعها صاحبها إلى الحاكم عن طريق موظف يلقب بـ"قصة دار"، وتعني "دار" الممسك أو الحامل، [١٢] وسميت مجازًا قصة حيث أن القصة اسم للمحكيّ في الورقة لا لنفس الورقة، وقد أطلق عليها سابقًا رقاعًا لصغر حجمها مثل رقعة الثوب،[١٣] ويراعى عند كتابة القصة الإيجاز والاختصار مع توضيح الغرض المطلوب، والقرب من فهم المخاطب، فإذا خرجت عن الحدّ في الطول أدى ذلك إلى ضجر وسّأم من تُعرض عليه، وبالتالي قد يؤدي إلى رفض الطلب بسبب استثقال قراءتها كاملة، أو اختلاط بعض مقاصدها ببعض، كذلك ضرورة أن يكون المطلوب مذكوراً بالتلميح لا بالتصريح؛ لأن ذلك أدعى إلى استمالة قلب المسؤول الذي تقدّم له القصة، الذي غالباً ما يكون من أصحاب الشعور بذاته السلطوية، ولو كتب الغرض المباشر منها لأدى ذلك إلى رفضها كما يجب ألا تكون مختصرة بشدة وبعيدة عن التعقيد اللغوي الذي يؤدي إلى الإعراض عنها، أو سؤال الغير عن مضمونها فيؤدي ذلك إلى الانتقاص من شأن السائل.[١٤]

ولابد من الإشارة إلى أن **المظلمة** جزء مما اشتملت عليه القصة، ولم تكن كل القصص مظالم كما سنرى في الصفحات التالية، فالمظلمة، من الظلم وهو وضع الشيء في غير موضعه، ويقال تظلم فلان من فلان فظلمه تظليمًا أي أنصفه ممن ظلمه وأعانه عليه،[١٥] أما اصطلاحيًا فالمقصود بالمظالم الشكاوى التي ترفع ضد الموظفين بالدواوين وغيرهم، وكان يكتب فيها أسباب الشكوى والمتسبب فيها. [١٦]

٤- البداية التاريخية لاستخدام القصص في مصر الإسلامية حتى قيام الدولة المملوكية

يرجع التأصيل التاريخي لوجود القصص في الدولة الإسلامية، إلى عصر الخليفة على بن أبي طالب (٣٥-٤٠هـ/٦٥٦-٦٦٠م) الذي اتخذ بيتًا تُرمى فيه قصص أهل الظّلامات[١٧]، واتسع استخدام القصص في كثير من الدول التي دخلت تحت عباءة الإسلام ومنها مصر التي حرص فاتحها عمرو بن العاص(ت٤٣هـ/٦٦٣م)على إنصاف المظلوم، وتحقيق مطالب الرعية، والنظر في شكواهم حتى اتخذ من مسجده مقرًا لعرض القصص والنظر فيها،[١٨] وعهد بذلك للقاضي سُلَيْم بن عتر التجيبي[١٩] سنة (٣٧هـ /٦٥٨م) ويعتبر أول من ولي القضاء إلى جانب القصص.[٢٠] ومنذ تلك الفترة التاريخية حتى قيام

(١٢) رينهارت دُوزِي، تكملة المعاجم العربية، ج٨، ترجمة وتعليق: محمد سليم النعيمي، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ط١، ٢٠٠٠م ، ص٢٨٢؛ حسان حلاق، وعباس صباغ، المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٩١م، ص١٧٤-١٧٥.

(١٣) القلقشندي(أبو العباس احمد بن على)، (ت٨٢١هـ/١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٢م، ج٦، ص٢٠٢؛ محمد أحمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر، دمشق، ١٩٩١م، ص١٢٤.

(١٤)القلقشندي، المصدر السابق، ج٦، ص٢٠٢-٢٠٣.

(١٥) ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص٣٧٥.

(١٦)محمد محمد مرسى على، نظر المظالم، ص١٦١.

(١٧) المصدر السابق، ج١، ص٤١٤؛ محمد الريشهري، موسوعة الإمام على بن أبي طالب في الكتاب والسنة والتاريخ، دار الحديث للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠١م، ج٤، ص٢٤٣.

(١٨) المقريزي(تقي الدين أحمد بن على)، (ت٨٤٥هـ/١٤٤٢م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ج٤، ص١٨.

(١٩) سُلَيْم بن عِتر بن سلمة بن مالك التُّجِيبي ويُكنى أبو سلمة المصري، ولي القضاء والقصص بمصر في عهد معاوية بن أبي سفيان لمدة سبعة وثلاثين سنة، ويعتبر أول قاض قام بتدوين أحكامه حتى أصبحت فيما بعد قواعد فقهية عند تدوين الفقه في عصر الخلافة العباسية، توفي سنة(٧٥هـ/ ٦٩٤م). الذهبي(شمس الدين محمد بن عثمان)، (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، سير أعلام النبلاء، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٦م، ج٥، ص٦٨؛ المقريزي، الخطط، ج٤، ص١٨.

(٢٠) المقريزي، المصدر السابق، ج٤، ص١٨.

الدولة الفاطمية تصمت المصادر على استخدام القصص كوسيط لعرض المطالب أو الشكاوى أو المظالم باستثناء إشارات بسيطة في عصر الدولة الطولونية (٢٥٤-٢٩٢هـ/٨٦٨-٩٠٥م)، والدولة الإخشيدية (٣٢٣-٣٥٨هـ /٩٣٥-٩٦٩م)، نري ذلك في ترجمة ابن خلكان(ت٦٨١هـ/١٢٨٢م)، للقاضي بكار بن قتيبة[٢١]، حيث ذكر من مظاهر تقواه وورعه أنه: إذا انفرد بنفسه أخذ يراجع القصص التي نظر فيها سابقًا.[٢٢]وفي حديث التنوخي(ت٣٨٤هـ/٩٩٤م) عن رجل يعرف بالناضري شاع خبره بين العامة بأنه بغي، فقطع كافور الإخشيدي[٢٣]عطاءه، فكتب إليه قصة يشكو فيها انقطاع عطاءه، ويسأله التوقيع بإجرائه.[٢٤]

أما في مصر الفاطمية(٣٥٨-٥٦٧هـ/٩٦٩-١١٧١م)، رُفعت كثير من القصص إلى الخلفاء الفاطميين وقادتهم ذات أغراض متعددة، منها قصة رفعت إلى القائد الفاطمي جوهر الصقلي (ت٣٨١هـ/٩٩١م) لطلب الأمان، فأمن المصريين على حياتهم وأموالهم وبلادهم.[٢٥]ولا يغيب عنا أول حدث تعرض له الخليفة المعز لدين الله(٣٦٢-٣٦٥هـ/٩٧٢-٩٧٥م) حينما وَطْأة أقدامه أرض مصر، قصة رُفعت إليه من زوجة الأمير محمد بن طغج الإخشيد(٣٢٣-٣٣٤هـ/٩٣٤-٩٤٥م)، تطلب منه أن يرد إليها أموالها من شخص يهودي أمّنَتْه عليها فخانها ورفض رد أموالها، فأمر المعز بإحضاره وسؤاله عن الأموال فأنكر، فشدد عليه فرد إليها أموالها، ثم أمر بإعدامه.[٢٦] وقصة أخرى يشكو فيها المسلمون من تجاوزات الكاتب عيسى بن نسطورس

(٢١) بكار أبو بكرة بن قتيبة بن أبي برذعة، ينتهي نسبة إلى الحارث بن كلدة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، حنفي المذهب، تولى القضاء والقصص بمصر سنة(٢٤٨هـ/٨٦٢م)، وتوفى وهو عليه سنة (٢٧٠هـ/٨٨٤م). ابن خلكان (أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد)، (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٠م، ج١، ص٢٧٩-٢٨٠؛ الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك)، (ت٧٦٤هـ/١٣٦٣م)، الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرنأووط، تركي مصطفى، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت،٢٠٠٠م، ج١٠، ص١١٧-١١٨.

(٢٢)ابن خلكان، المصدر السابق ، ج١، ص٢٧٩؛ الصفدي، المصدر السابق، ج١٠، ص١١٨.

(٢٣) أبو المسك كافور بن عبد الله الإخشيدى، أحد الرقيق الذين اشتراهم محمد بن طغج الإخشيد من الحبشة، أصبح الحاكم الفعلي لمصر لمدة ٢٢ سنة بعد وفاة سيده سنة(٣٣٤هـ/٩٤٥م)، بوصايته على أبناءه، ثم سار أميرًا مستقلًا بحكم مصر سنة(٣٥٥-٣٥٧هـ/٩٦٥-٩٦٧م)حتى وفاته. المقريزي، الخطط، ج٣، ص٥٠؛ ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف)، (ت٨٧٤هـ/١٤٧٠م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر،١٩٦٣م، ج٤، ص٩.

(٢٤) التنوخي(المحسن بن علي بن محمد بن أبي الفهم)، (ت٣٨٤هـ/٩٩٤م)، الفرج بعد الشدة، تح: عبود الشالجى، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨م، ج٤، ص٦٣-٦٤؛ نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تح: عبود الشالجي، دار صادر، لبنان، ١٩٧٢م، ج٢، ص١٧٤.

(٢٥) أبو حيان التوحيدي(علي بن محمد بن العباس)، (ت٤٠٠هـ/١٠١٠م)، البصائر والذخائر، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨م، ج١، ص١٨٤؛ أبو سعد الآبي(منصور بن الحسين الرازي)، (ت٤٢١هـ/١٠٣٠م)، نثر الدر في المحاضرات، تح: خالد عبد الغني محفوظ، دار الكتب العلمية، بيروت،٢٠٠٤م، ج٦، ص٦٩؛ المقريزي، الخطط، ج١، ص٢٧٣؛ أميرة الشيخ رضا، الفاطميون تاريخهم وآثارهم في مصر، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٣م، ص٤٠ ؛ محمد كامل حسين، الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربي إلى آخر الدولة الفاطمية، منشورات البندقية، ط١، القاهرة، ٢٠١٦م، ص١٩٥.

(٢٦) ابن إياس(محمد بن أحمد)، (ت٩٣٠هـ/١٥٢٤م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تح: محمد مصطفى، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣م ، ج١، ق١، ص١٨٩.

النصراني[٢٧] في مصر، واليهودي منشأ[٢٨] في بلاد الشام، فاستجاب الخليفة العزيز لها وقبض عليهما وصادر أملاكهما.[٢٩] وأخرى رفعت بمكر وخداع للخليفة الحاكم بأمر الله(٣٨٦-٤١١هـ/٩٩٦م-١٠٢٠م)، للذم فيه وسبابه والدعاء عليه.[٣٠]

وفي مصر الأيوبية (٥٦٩-٦٤٨هـ/١١٧٤-١٢٥٠م)، رُفعت قصة للسلطان صلاح الدين الأيوبي(٥٦٩-٥٨٨هـ/١١٧٤-١١٩٣م) من اليهود يعربون فيها عن رغبتهم بالاحتكام إلى شريعتهم فيما يخص قضايا المواريث، فاستشار السلطان فقهاء المالكية والشافعية في هذا الأمر فأجازوا ذلك،[٣١]، وقصة أخرى رفعت إلى الوزير صفي الدين بن شكر[٣٢] بها مرشحين لصلاة التراويح بالمدرسة التي أنشأها الوزير بالقاهرة،[٣٣]وقد احتفظت لنا سيرة السلطان الصالح نجم الدين أيوب(٦٣٧-٦٤٦هـ/١٢٤٠-١٢٤٩م) باهتمامه بالنظر في القصص وحده دون غيره من أرباب دولته.[٣٤]

فكما هو واضح، أن بداية النشأة التاريخية لفكرة القصص كانت مرتبطة برغبة الحاكم في تحقيق العدل بين رعيته، والاستجابة إلى شكاياتهم؛ بهدف السعي لرد المظالم التي وردت فيها، لكننا نرى استخدامًا متنوعًا لها في مصر المملوكية حتى سارت أثرًا نهتدي به فيما يلي:

١.٤ توثيق الواقع الطبقي للمجتمع

من خلال مطالعة أخبار القصص نستطيع أن نرى الحالة الاجتماعية في الدولة الإسلامية، ونطالع الواقع التاريخي للتفاوت الطبقي الواضح بين مختلف أبناء المجتمع، فقد وصل الانقسام الطبقي إلى مستويات واضحة من التباعد، بين فئات تنعم بكثير من خيرات المجتمع وفئات تنتظر فتات ما يتبقى من تلك الفئات. ومن أهم ما يُلاحظ فيما سجلته أخبار القصص أن

(٢٧) عيسى بن نسطورس النصراني، وزير الخليفة العزيز بعد وفاة أبو الفرج يعقوب بن كلس، استأثر بشؤون الحكم والإدارة ومال إلى النصارى على حساب المسلمين في تقليدهم كثير من الوظائف، فكثرت الشكاوى فيه إلى العزيز فعزله وصادر أملاكه ثم قتله سنة(٣٨٦هـ/٩٩٦م). ابن الأثير الجزري(أبو الحسن علي بن أبي الكرم)، (ت٦٣٠هـ/١٢٣٣م)، الكامل في التاريخ، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٧م، ج٧، ص٤٧٥؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٤، ص١١٦؛ محمد سالم الطراونة وسحر عبد المجيد، أحوال أهل الذمة في مصر في خلافة الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي، دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٩، مج٣٦، ص٧٩٨.

(٢٨) مُنَشَّا إبراهيم بن القزاز، ولاه عيسى بن نسطورس واليًا على الشام فسلك مسلكه في محاباة أهل ملته من اليهود وتقليدهم الولايات والوظائف دون المسلمين فتم القبض عليه ومصادره أملاكه سنة (٣٨٦هـ/٩٩٦م). ابن الأثير الجزري، الكامل، ج٧، ص٤٤٧؛ المقريزي، الخطط، ج١، ص٢٩٧، ج٣، ص٣٤٣.

(٢٩) ابن مسكويه (أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب)، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، (ت٤٢١هـ/١٠٣٠م)، تح: أبو القاسم إمامي، طهران، ط٢، ٢٠٠٠م، ج٧، ص٢٢٢؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٤٧٥؛ أبو الفدا (عماد الدين إسماعيل بن على)، (ت٧٣٢هـ/١٣٣٢م) المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، ١٩٠٧م، ج٢، ص١٣١؛ ابن الوردي(عمر بن مظفر بن عمر)، (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م) ، تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م، ط١، ١٩٩٦م، ج١، ص٣٠٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص ١٩٦؛ العصامي(عبد الملك بن حسين بن عبد الملك)، (ت١١١١هـ/١٧٠٠م)، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، تح: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ج٣، ص٥٥.

(٣٠) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١١، ص٤٣٨.

(٣١) السبكي(تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين)، (ت٧٧١هـ/١٣٧٠م)، طبقات الشافعية الكبرى، تح: محمود محمد الطناحي، عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٩٣م، ج٦، ص٤١-٤٢.

(٣٢) الصاحب صفى الدين عبد الله بن على بن شكر، ولد سنة(٥٤٨هـ/ ١١٥٣)، نبغ في علوم الفقه والحديث، وأنشأ مدرسته الصالحية بالقاهرة، وتولى الوزارة للسلطان الكامل الأيوبي، وتوفي سنة (٦٢٢هـ /١٢٢٥م). ابن شاكر الكتبي(محمد بن شاكر بن أحمد)، (ت٧٦٤هـ/١٣٦٣م)، فوات الوفيات، تح: إحسان عباس ، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٧٣م، ج٢، ص١٩٣-١٩٤؛ للمزيد راجع: ساميه على مصيلحي، صفي الدين عبدالله بن علي المعروف بابن شكر الوزيرالأيوبي(٥٤٨-٦٢٢هـ/١١٥٣-٢٢٥١م)، المجلة التاريخية المصرية، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مج٤٥، ٢٠٠٧م، ص٤٤٦-٤٩٧.

(٣٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص٤١٢.

(٣٤) أبو الفدا، المختصر، ج٣، ص١٨٠؛ ابن الوردي، تاريخه، ج٢، ص١٧٦.

ما نقرأه فيها، بما يفيد بوجود تفاوت واضح وانقسام حاد بين المستويات الاجتماعية في عادات الاستهلاك والرفاهية، نجده كذلك يفيد بإمكانية تغير الحال معبرا عن الحراك الطبقي السلبي؛ نظراً لارتباط الفئة المرفّهة بواقع الحالة السياسية وتقلباتها، حيث يكون أحدهم في أعلى درجات الرفاه ثم يصل به الحال إلى كتابة قصة لطلب المعونة، ومن ذلك: نري في ثنايا الحديث عن الأزمة المالية التي تعرض لها الوزير كريم الدين عبد الكريم بن الروَيهب[٣٥] قُبيل وفاته سنة(٧٨٤هـ/١٣٨٢م) أنه صار يكتب قصصًا يسأل فيها عامة الناس عن أي شيء يقتات به في يومه هو وأسرته.[٣٦]وقد تعرض كبار التجار لنفس المصير الذي تعرض إليه الوزير السابق، يتضح ذلك في عصر السلطان الظاهر بيبرس(٦٥٨-٦٧٦هـ/١٢٦٠-١٢٧٧م) الذي اشترى مملوكًا يدعى بيليك الخازندار[٣٧]من أحد التجار الأثرياء، وصار هذا المملوك من كبار الأمراء، بينما سار سيده السابق من الفقراء المعدمين، حينئذ نصحه أحد التجار أن يكتب إلى الأمير بيليك قصة يشكو فيها ما أصابه لعله يستجيب إليه، وبالفعل كتب إليه، فأنعم الأمير عليه بعشرة آلاف دينار.[٣٨]

ولشدة ما مر به بعض العامة من ضائقة مالية لدرجة أنه كان يعجز عن شراء ما يلزم من كساء، وجدت القصص لتقوم بلسان حال عن السؤال، فقد رفعت امرأة قصة إلى القاضي عبد الكريم بن هبة الله[٣٩] تطلب فيها إزارًا، فوقع على قصتها بأن يصرف لها مبلغ ثماني مائة درهم، وذهبت المرأة للصّيرفي لاستحقاق المبلغ المقرر، لكن أنكر الصيرفي تلك القيمة المقررة

(٣٥)الصاحب الوزير كريم الدين عبد الكريم بن الرُوَيهب، ولي الوزارة ثلاثة مرات وعزل، كما أصيب بكثير من المحن والنكبات حتى صار من الفقراء، توفي سنة(٧٨٤هـ/١٣٨٢م). ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تح: محمد محمد أمين، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٦م، ج٧، ص٣٥١-٣٥٢؛ الدليل الشافي على المنهل الصافي، تح: فهيم محمد شلتوت، ط٢، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٨م، ج١، ص٤٣٦؛ النجوم الزاهرة، ج١١، ص٢٩٥؛ الصيرفي(الخطيب الجوهري على بن داود)، (ت٩٠٠هـ/١٤٩٥م)، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تح: حسن حبشي، دار الكتب، ١٩٧١م ، ج١، ص٥٧؛ لويس شيخو، وزراء النصرانية وكُتابها في الإسلام(٦٢٢-١٥١٧م)، تح: الأب كميل حشيمة اليسوعي، المكتبة البولسية، لبنان، ١٩٨٧م، ص١٨٢؛

G . Wiet, Les Biographies du Manhal Safi , le Caire,1932, p.213, Abd al-Raziq, Ahmad, Le vizirat et les vizirs d'Égypte au temps des Mamluks, Annales islamologiques, vol. 16, 1980, p204, 206.

(٣٦) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٣٢٦.

(٣٧) الدمِيري(كمال الدين محمد بن موسى)، (ت٨٠٨هـ/١٤٠٦م)، لامية العجم (وهو مختصر شرح الصفدي المسمى الغيث المسجم)، تح: جميل عبد الله عويضة، ٢٠٠٨م، ص٣٦؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣١١.

(٣٨) الأمير بدرالدين بَيْلِيك بن عبد الله الظاهري الخازندار، نائب السلطنة بالديار المصرية ومقدم الجيوش، كان في الأصل مملوكًا لأحد التجار، ثم باعه إلى الملك الظاهر بيبرس، وكان لجمال خطه سببًا في القرب منه، وكان له دور كبير في الحفاظ على وحدة الجيش أثناء وفاة الظاهر بيبرس بالشام حيث أخفى خبر وفاته، وتوفي بقلعة الجبل سنة(٦٧٦هـ/١٢٧٧م). الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٠، ص٢٢٦-٢٢٧؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٣، ص٥١٢-٥١٤؛ النجوم الزاهرة، ج٧، ص٢٧٦؛ الدليل الشافي، ج١، ص٢١١؛ ابن العماد الحنبلي(عبد الحي بن أحمد بن محمد)، (ت١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٩٨٦م، ج٥، ص٣٥١؛ أحمد مصطفى رشيد، إشكاليات نظام الحكم وولاية العهد في دولة المماليك البحرية(٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م)، أطروحة ماجستير، جامعة النجاح، فلسطين، ٢٠٠٢م، ص١٠٠.

(٣٩) أبو الفضائل كريم الدين عبد الكريم بن العلم بن هبة الله بن السديد، أسلم كهلًا، وتسمى بعبد الكريم بعد أن تسمى بأكرم، عهد له الناصر محمد بن قلاوون بالنظر في شؤونه الخاصة وهو أول من سُمي بـ"ناظر الخاص"، كما أطلقت يده في جميع شؤون الدولة فتجاوز حدوده فنفي ثم أعدم بأسوان في السبعين من عمره (٧٢٤هـ/١٣٢٣م). ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج٢، ص٣٧٧-٣٨٣؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تح: محمد عبد القادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ج٣، ص٦٢ ،٧٦؛ ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أحمد بن على بن محمد)، (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تح: محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٩٧٢م، ج٣، ص٢٠٣؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٧، ص٣٤٥-٣٤٩؛ عبد الرحمن عبد الحميد عبد العزيز، أثر ناظر الدولة السياسي على الوزارة في العصر المملوكي(٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)، حولية كلية اللغة العربية بالزقازيق، ع٣٤، مج٣، ٢٠١٤م، ص٢٢٤٢.

للإزار وأوقف ما جاء بالقصة حتى يراجع القاضي الذي أثبت لديه أن ثمن الإزار أقل بكثير من ذلك المبلغ، لكن القاضي بالغ في إكرامه للمرأة، بأن أمر أن يُصرف لها فوق الثماني مئة درهم ثمانين درهم.[٤٠]

وليس القاضي أكرم من السلطان الناصر محمد بن السلطان قايتباي(٩٠١-٩٠٢هـ/١٤٩٦-١٤٩٧م) الذي رُفعت إليه قصة من أحد العامة يُعرض فيها ما مر به من ضائقة مالية، خاصة وأنه قد اقترب موعد زفاف ابنته وتحتاج إلى تجهيزات الزواج، فأمر له السلطان بمال جزيل.[٤١]

ورغم الكرم السابق في العطاء، نرى في القصة التالية بخلًا شديدًا في الإجابة، فقد رُفعت قصة إلى القاضي ناصر الدين بن المَيْلَق[٤٢]يشكو فيها صاحبها من شدة الفقر خاصة وأن زوجته قد وضعت، فوقع له القاضي بقدر ضئيل من المال لا يكفي لسد ما يحتاجه، ثم ذهب لأحد بطاركة النصارى وعرض عليه ما كان من أمره ثم انصرف، ولم يلبث أن رجع إلى بيته فوجد كثيرًا من الدقيق، والعسل، والشمع، وغيرها من السلع الأساسية، مع عشرة دنانير.[٤٣]

وليس القاضي أبخل من السلطان قايتباي(٨٧٢-٩٠١هـ/١٤٦٨-١٤٩٦م)، التي رُفعت إليه قصة من أحد أبناء النجارين- العاملين بسجن القلعة، تُوفي أثناء تأدية عمله سنة (٨٧٦هـ/١٤٧٢م)-، يلتمس فيها مساعدتهم على سبيل الصدقة، فوقع لهم السلطان بمبلغ ضئيل قدره "مائة دينار". [٤٤]

كذلك كانت القصص شاهد عيان على استغلال التفاوت الطبقي في المجتمع المملوكي، خاصة إذا كان أحدهم قريبًا من السلطة وفي كنف رعايتها، فتكون تجاوزاته محصنة بتلك المنزلة، ومن ذلك: أن كثير من القصص رُفعت لدار العدل[٤٥] في مماليك قراسنقر النائب[٤٦]، وبخاصة في كاتبه شرف يعقوب، الذي اشتهر بالثراء وكثرة الأتباع، واجتماعه بأصدقائه للهو

---

(٤٠)الصفدي(صلاح الدين خليل بن أيبك)، (ت٦٧٤هـ/١٢٧٦م)، أعيان العصر وأعوان النصر، تح: علي أبو زيد، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٨م، ج٣، ص١٤٦-١٤٧؛ الكتبي، فوات الوفيات، ج٢، ص٣٨٠.

(٤١) ابن الشحنة(عبد البر بن محمد)، (ت٩٢١هـ/١٥١٥م)، البدر الزاهر في نصرة الملك الناصر، تح: ريتشارد مورتيل، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، ع٢، مج١٤، ١٩٨٧م، ص٦٨٨.

(٤٢) ناصر الدين محمد بن عبد الدائم بن محمد المعروف بابن بنت مَيْلَق الصوفي الشاذلي، ولد سنة(٧٣٠هـ/١٣٣٠م) ببلدة أشموم الرمان "بمحافظة الدقهلية"، درس الفقه على يد كثير من علماء عصره، ولي الخطابة في مسجد السلطان حسن، ثم ولي القضاء في عصر الظاهر برقوق، لكن ساءت العلاقة بينهما مما أدعى لعزله، وتوفي سنة(٧٩٧هـ/١٣٩٥م). ابن حجر، الدرر، ج٥، ص٢٤٢-٢٤٣؛ إنباء الغمر بأنباء العمر، تحقيق وتعليق: حسن حبشي، القاهرة، ١٩٦٩م، ج١، ص٥٠٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص١٤٦-١٤٧؛ الدليل الشافي، ج٢، ص٦٣٢؛ الصيرفي، نزهة النفوس، ج١، ص٤١٩. فؤاد صالح السيد، معجم الذين نسبوا إلى أمهاتهم، بيروت، ١٩٩٦م، ص٣١٨.

(٤٣)السخاوي(شمس الدين محمد بن عبد الرحمن)،(ت٩٠٢هـ/١٤٩٧م) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢م ، ج٨، ص١٥٨.

(٤٤)ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص٧٠.

(٤٥) دار العدل، بناها السلطان الظاهر بيبرس البندقداري، سنة(٦٦١هـ/١٢٦٣م)، وموضعها يُعرف بالطبلخاناه تحت القلعة. للمزيد راجع: المقريزي، الخطط ، ج٣، ص٣٥٨-٣٦٤؛

Jorgen Nelson, Mazalim and Dar Al-'adl under the early Mamluks, the Muslim World, Vol. LXVI, No. 2, April, 1976, p.114.

(٤٦) الأمير سيف الدين قراقسنقر بن عبد الله المنصوري، ينسب إلى المنصور قلاوون الذي رقاه إلى رتبة أمير مائة ومقدم ألف بمصر، كما ولي نيابة السلطنة في مصر، وحلب، ودمشق، عاصر العديد من السلاطين المماليك مثل المنصور قلاوون، والأشرف خليل، والناصر محمد بن قلاوون، وكتبغا، ولاجين، وبيبرس الجاشنكير، وكان ممن اشترك في قتل الأشرف خليل مما جر عليه عداء الناصر محمد واضطر للهروب إلى الدولة المغولية، وتوفي طريح الفراش سنة(٧٢٨هـ/١٣٢٧م).ابن كثير(أبو الفدا إسماعيل بن عمر)، (ت٧٧٤هـ/١٣٧٣م)، البداية والنهاية، دار الفكر، ١٩٨٦م، ج١٤، ص١٤٠؛ ابن حبيب(الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر)،(ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م) تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تح: محمد محمد أمين، سعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣م، ج٢، ص١٨٣؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤، ص٢٨٧؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ح٩، ص٤٧-٤٨؛ النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٧٣-٢٧٤؛ للمزيد راجع: سند أحمد عبد الفتاح، الأمير شمس الدين قراسنقر

والطرب، وممارسته كثير من السلوكيات السيئة ومنها: تعلقه بامرأة متزوجة راوداها عن نفسها فأبت، وتصادف يومًا أن زاد في شرابه حتى وصل إلى حدر السكر، فأرسل إليها من دعاها لبيته فرفضت، فسيّر إليها من أحضرها هي وزوجها كرهًا بعد أن ضرب زوجها وأهانه أشد إهانة، فرفع الزوج قصة للسلطان لاجين(٦٩٦-٦٩٨هـ/١٢٩٦-١٢٩٩م) سنة (٦٩٦هـ/١٢٩٧م) بما حدث، فما كان من السلطان إلا أن استدعى قراسنقر وشدد عليه بضرورة تأديب كاتبه، ولما رجع قراسنقر عرض القصة على الكاتب فأنكرها، ولم يُعر للأمر اهتمامًا لا هو ولا كاتبه، فازداد غضب السلطان عليه، وأخذ يعدد للأمراء مثالب قراسنقر ومماليكه وظلمهم في حق الرعية حتى اتفق الجميع على عزله والقبض عليه.[٤٧] فقد وجدت القصة هوى في نفس السلطان العاجز عن معاقبة نائبه، واستدل مؤخرًا بفساد حاشيته، حتى يؤلب القوى السياسية المملوكية عليه وقد نجح في ذلك.

وكان للعدالة أثرًا في دعم ومساندة طبقات المجتمع، ضد كبار رجال الدولة وعلى رأسهم السلاطين المماليك، فقد رفعت امرأة قصة للقاضي ابن الديري،[٤٨] تقول فيها أن السلطان المؤيد شيخ المحمودي(٨١٥-٨٢٤هـ/١٤١٢-١٤٢١م) تزوجها منذ زمن بعيد، ولها عليه حق، فما كان منه إلا وقد كتب على القصة بوجوب حضور السلطان أو وكيله، وأرسلها مع بعض رسله إلى السلطان الذي سُر بهذا الموقف ليتأكد من عدل قاضيه، وبالفعل أرسل وكيله وقد أمره بمصالحة المرأة بمبلغ مالي كبير.[٤٩] كما رُفعت قصة إلى القاضي محمد بن يوسف الإسناوي[٥٠]، يختصم صاحبها الأمير يلبغا[٥١]- وكان هذا امتحان من الأمير لاختبار عدل القاضي- فكتب على القصة بوجوب حضور الأمير أو وكيله، وذهب الرسول بالقصة إلى الأمير الذي أجاب بأنه سوف يصالح غريمه على شكواه، ولكن رفض الرسول وأصر على إرسال الأمير أو وكيله، فأجيب إلى طلبه، فأعجب يلبغا بذلك وأعطى للرسول ألف درهم، وازداد احترامه وتقديره للقاضي الذي أرسل إليه ذهبًا وبغلة هدية له على ثبات موقفه. [٥٢]

كما وثقت لنا القصص بعض مظاهر الفساد الاجتماعي لطبقة الخاصة وعلى رأسها السلاطين المماليك، الذين ارتكب بعضهم أفعالًا مشينة يرفضها السلوك الإنساني القويم، ففي معرض حديث ابن تغري بردي عن فساد السلطان المؤيد شيخ المحمودي الذي قُرأت عليه كثير من القصص، منها: قصة تُشَهِّر بالسلطان نفسه هي "قصة الشيخ عاشق محمود العجمي"، فيها إشارة

المنصوري(إشكالياته في ضوء المصادر المملوكية)، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، الحولية ٣٨، سبتمبر ٢٠١٧م، ص٧-١٧٣.

(٤٧) بدر الدين العيني(أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى)، (ت٨٥٥هـ/١٤٥١م)، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، عصر سلاطين المماليك، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٠م، ج٣، ص٣٦١-٣٦٣.

(٤٨) محمد بن عبد الله بن سعد بن أبي بكر بن مصلح، المعروف بابن الديري، ولد سنة (٧٤٠هـ/١٣٤٠م)، حفظ القرآن الكريم وتفقه في الدين على يد علماء الشام، استدعاه السلطان المؤيد شيخ المحمودي لولاية قضاء الحنفية فباشر فيها على أكمل سيرة، ثم ولي شؤون التدريس والتصوف في المدرسة المؤيدية، وتوفي في (شوال٨٢٧هـ/سبتمبر ١٤٢٤م). السخاوي، الضوء اللامع، ج٨، ص٨٨-٩٠.

(٤٩) المصدر السابق، ص٨٩.

(٥٠) الخطيب جمال الدين محمد بن محمد بن علي بن يوسف الأسناوي، النيسابوري، قدم إلى مصر سنة (٧٢١هـ/١٣٢١م)، نبغ في علوم الفقه، واللغة، وناب في الحكم، وتوفي سنة(٧٨٤هـ/١٣٨٢م). ابن حجر، إنباء الغمر، ج١، ص٢٦٩-٢٧٠.

(٥١) الأمير سيف الدين يلبغا بن عبد الله الناصري الظاهري الأتابكي، ترجع نسبته بالناصري إلى جالبه خواجا ناصر الدين، من مماليك الظاهر برقوق ومن أعيان خاصكيته، ترقي في المناصب حتى وصل في عصر السلطان فرج بن برقوق إلى أمير مائه ومقدم ألف ثم حاجب الحجاب، وأتابكًا للعسكر في عصر السلطان المؤيد شيخ، وتوفي سنة(٨١٧هـ/١٤١٤م). ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣، ص٥١؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج١٢، ص١٧١-١٧٢؛ الدليل الشافي، ج٢، ص٧٩٤؛ النجوم الزاهرة، ج١٤، ص١٣٠؛ الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، ج٢، ص٣٤٦؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج١٠، ص٢٩٠.

(٥٢) ابن حجر، انباء الغمر، ج١، ص٢٦٩-٢٧٠؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٨، ص٤٩١.

لشخص السلطان وعشقه لابن أحد الأمراء ويدعى محمود بن الأمير قَلَمطاي الدِّوادار[٥٣]، ولم يخف محمود هذه العلاقة بل تصادف أثناء قراءة هذه القصة جلوسه مع السلطان وقد أشار بيده إلى نفسه، فضحك السلطان تجاه هذا الموقف.[٥٤]

وقصة أخرى رُفعت إلى السلطان برسباي(٨٢٥-٨٤١هـ/١٤٢٢-١٤٣٨م) في(ربيع الآخر ٨٣١هـ/يناير ١٤٢٨) من أهل دمياط ضد ابن الملاح الكاتب النصراني[٥٥]الذي شاع خبره بمجاهرته باللواط وشرب الخمر والغناء مستغلًا ثرائه في ذلك، فعقد السلطان مجلسًا له، وتمت مواجهته بهذه الشكاوي والتهم فأنكرها في البداية ثم أثبتت عليه أحد الوقائع فاعترف بها، وندم على أفعاله وأسلم ولُقب بمحب الدين، وحسنت سيرته وعاد إلى دمياط ثانية.[٥٦]

٢.٤ *طَلَبِ العَطاء*

من أخبار القصص، نستنتج الحقائق التاريخية المتصلة بالسلوك السياسي، وفيها أن قضاء حاجة المحتاج واجب أخلاقي على كل من امتلك سلطة وكانت لديه القدرة على تحقيقها. وقد وقر هذا المبدأ الأخلاقي في ذهن العقل الجمعي المصري، ونرى تجلياته في مدونة السلوك الأخلاقي السياسي، التي تنطلق من قيم دينية إسلامية، وتتعظ بما وقع في التاريخ للمستبدّين والمتكبّرين، وتؤسس لخطابها الأخلاقي النظري بناء على رصد "ما يجب أن يكون"، ومن وقائع التاريخ التي يقوم فيها المسؤول بما عليه من مسؤولية، ترصد لنا المصادر نماذج مختلفة من القصص توضح ذلك، فقد رفع القاضي جلال الدين أبو عبد الله القزويني[٥٧]ستة عشر قصة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون بها مطالب متنوعة، شفع فيها القاضي فأجابها السلطان.[٥٨] وعلى صعيد آخر، نرى رفض وتجاهل السلطان نفسه لقصة واحدة عرضها عليه القاضي ابن عدلان[٥٩]بل ورد عليه بجواب يتضمن معايرته بوفاة السلطان بيبرس الجاشنكير(٧٠٨-٧٠٩هـ/١٣٠٩-١٣١٠م) الذي أيده القاضي راغبًا في خلع الناصر محمد بن قلاوون.[٦٠]

---

(٥٣) محمود هو أحد أبناء ابن الأمير سيف قَلْمَطَاي بن عبد الله العثماني الظاهري الدوادار، من مماليك السلطان برقوق، اشتراه في سلطنته الأولى ثم أعتقه ورقاه حتى صار خاصكيًا ثم أمير عشرة ثم مقدم ألف ودوادار في سلطنته الثانية، وتوفي سنة(٨٠٠هـ/١٣٩٧م). ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٩، ص٩٨-٩٩؛ الدليل الشافي، ج٢، ص٥٤٨؛ النجوم الزاهرة، ج١٢، ص١٦٣؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ص٢٨؛ الصيرفي، نزهة النفوس، ج١، ص٤٧٥.

(٥٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٤، ص١١١.

(٥٥) كانت ابن الملاح النصراني الملكي، كان كاتبًا بدمياط وله ثروة عظيمة، اتهم بارتكابه كثير من المفاسد، ثم أسلم سنة(٨٣١هـ/١٤٢٨م)، وسمى نفسه محب الدين أو مجد الدين. ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣، ص٣٩٩-٤٠٠؛ ابن شاهين (زين الدين عبد الباسط بن أبي الصفاء)، (ت٩٢٠هـ/١٥١٤م)، نيل الأمل في ذيل الدول تح: عمر عبد السلام تدمري ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م، ج٤، ص٢٣٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص١١٩.

(٥٦) ابن حجر، انباء الغمر، ج٣، ص٣٩٩-٤٠٠؛ ابن شاهين، نيل الأمل، ج٤، ص٢٣٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص١١٩.

(٥٧) جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر القزويني، ولد بالموصل سنة(٦٦٦هـ/١٢٦٨م)، درس الفقه على يد كثير من العلماء، وولي قضاء دمشق، وخطابة الجامع الأموي، ثم ولي قضاء مصر سنة(٧٢٧هـ/١٣٢٧م)، ثم ولي قضاء دمشق ثانية، وتوفي سنة (٧٣٩هـ/١٣٣٨م). الصفدي، أعيان العصر، ج٤، ص٤٩٢-٤٩٧؛ ابن تغر بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٣١٨؛ الدليل الشافي، ج٢، ص٦٣٤؛ المنهل الصافي، ج١٠، ص١٠٤-١٠٥؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٥، ص٢٤٩-٢٥٠؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٦، ص١٢٣؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج٩، ص١٥٨.

(٥٨) الصفدي، أعيان العصر، ج٤، ص٤٩٤؛ ابن حجر، رفع الإصر عن قضاة مصر، تح: على محمد عمر، ط١، ١٩٩٨م، ص٣٦٦.

(٥٩) شمس الدين أبو عبد الله الكناني محمد بن أحمد بن عثمان بن إبراهيم بن عدلان، درس الفقه على يد كثير من علماء عصره، رغم عظم قدره كره الناصر محمد بن قلاوون لتأييده خلعه على يد بيبرس الجاشنكير، توفي سنة(٧٤٩هـ/١٣٤٨م). الصفدي، أعيان العصر، ج٤، ص٢٩٧-٢٩٩؛ الوافي بالوفيات، ج٢، ص١٦٨؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٥، ص٦٣-٦٥؛ العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٨، ص٢٧٩؛ شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، دار المعارف، مصر، ١٩٩٥م، ص٨٢٠.

(٦٠) الصفدي، أعيان العصر، ج٤، ص٢٩٩.

نظرًا للسلوكيات السيئة التي قد يسلكها بعض مسؤولي الدولة تجاه السلاطين مباشرة، وتترك صدى لا يُنسى فيتم رفض أي من المطالب التي تقدم للسلطان برسمهم فمن ذلك، رفع شهاب الدين أحمد بن محيي الدين بن فضل الله العمري[٦١] قصة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون في (جمادى الآخرة سنة٧٣٩هـ/ديسمبر١٣٣٨م) ، يشكو فيها من التضييق عليه وتحديد اقامته، ورغبته بالتوجه إلى دمشق، لكن رفض السلطان طلبه بل وتذكر ما كان منه تجاهه حينما عارضه واحتد في الحديث معه –إبان ولايته ديوان الإنشاء– بشأن ولاية علم الدين محمد بن القطب أحمد بن مفضل[٦٢] بوظيفة كاتب السر بدمشق، وصفحه عنه إكرامًا لأبيه، وتذكر أيضًا ما كان منه في ذم قاضي القضاة عز الدين بن جماعة[٦٣]، فأمر السلطان بالقبض عليه وحُمل إلى القلعة وخُيّر ما بين التعذيب وتعريته في القلعة أو دفع مبلغ عشرة آلاف دينار، فكتب توقيعًا بالمبلغ المحدد، وتمت مصادرة أملاكه. [٦٤]

ورغم أن السلطان صاحب السلطة الفعلية الأولى في الموافقة على قصص الرعية بما فيها من مطالب مختلفة، ويكون أمر الموافقة حال التنفيذ فورًا، لكن كان لسطوة وغلبة بعض الأمراء على السلاطين، حائل مؤقت لتنفيذها، فكان لتعاظم شأن الأمير طشتمر حمص أخضر[٦٥]، ومعارضته أوامر السلطان شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد بن قلاوون(٧٤٢-٧٤٣هـ /١٣٤٢م)، ورد مراسيمه، والترفع على الأمراء، ورد شفاعتهم في كافة الأمور، وعدم تقديرهم، كذلك رفض إقرار وتنفيذ توقيع السلطان على القصص التي تم البت فيها، وطرد صاحبها، والأكثر من ذلك عهد إلى الحاجب بمنع دخول كل من يرفع قصة

---

(٦١) شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله بن يحيى بن دعجان بن خلف، ولد في دمشق سنة(٧٠٠هـ/١٣٠١م) أو(٧٠١هـ/١٣٠٢م)، تقلد عدد من الوظائف المهمة منها قاض بمصر، ورئيس ديوان الإنشاء خلفًا لوالده، كما ولي أيضًا الإشراف على البريد، درس علوم اللغة والفقه والحديث والعروض والشعر والأدب، توفي سنة(٧٤٩هـ/١٣٤٨م). الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٨، ص١٦٣-١٧٥؛ ابن العراقي(ولي الدين أبي زرعة أحمد بن عبد الرحيم)، (ت٨٢٦هـ/١٤٢٣م)، الذيل على العبر في خبر من غبر، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٩م، ص٤٢١؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٢، ص٢٦٥-٢٧٠؛ الدليل الشافي، ج١، ص٩٦؛ النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٣٣٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٥٣٣؛ أنستاتس الكرملي، أدب العصر المملوكي، مجلة لغة العرب، مج٨، بغداد، ١٩٣٠م، ص١١٣؛ حسن محمد عبد الهادي، ترجمة ابن فضل الله العمري (شهاب الدين أحمد بن يحيى)، مجلة جامعة الأزهر بغزة، سلسلة العلوم الإنسانية،ع١، مج١٢، ٢٠١٠م، ص٨٢-٩٢؛

D.S. Richards, Egypt and Syria in the Early Mamluk Period: An Extract from Ibn Faḍl Allāh Al-'Umarī's Masālik Al-Abṣār Fī Mamālik Al-Amṣā ,Routledge, 2017, p. 115.

(٦٢) علم الدين محمد بن القطب أحمد بن مفضل بن فضل الله المستوفي، ولي كتابة السر ثم نظر الدواوين ثم نظر الجيوش في الدولة الناصرية، توفي في(٦جمادى الآخرة سنة ٧٦٠هـ/ ٤ مايو١٣٥٩م). الذهبي، العبر في خبر من غبر، تح: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني، دار الكتب العلمية، بيروت،١٩٨٥م، ج٤، ص١٨٢.

(٦٣) عز الدين أبو عمر عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة، بن قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة، ولد بدمشق سنة(٦٩٤هـ/١٢٩٥م)، تلقى العلم يد كثير من علماء عصره في دمشق والقاهرة والإسكندرية، تولى قضاء مصر(٧٣٨هـ/١٣٣٨م)، توفي بمكة سنة(٧٦٧هـ/١٣٦٥م). التقي الفاسي (تقي الدين محمد بن أحمد الحسني)، (ت٨٣٢هـ/ ١٤٢٩م)، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تح: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ج٥، ص٩٣؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٧، ص٣٠٠-٣٠٢؛ الدليل الشافي، ج١، ص١٨؛ النجوم الزاهرة، ج١١، ص٨٩-٩٠؛ وعنه راجع أيضًا:

Rasheed. Jiyan Salih, Ali. Sipan Hasan, Izz Al Din ibn Jama'ah (694-767 H /1294-1365 AD) as an example of the most Prominent Figures of the Ibn Jama'ah Clan University of Duhok, Kurdistan, Vol. 1 No. 4 ,2021, p.43-54.

(٦٤) المقريزي، السلوك، ج٣، ص٢٥٦-٢٥٧؛ الخطط، ج٣، ص١٠٧.

(٦٥) سيف الدين طشتمر بن عبد الله الناصري، المعروف بحمص الأخضر– لحبه أكله فلقب به– من مماليك الناصر محمد بن قلاوون، ثم صار أحد أمراء القاهرة، ثم ولي نيابة صفد، ثم حلب، ثم نيابة السلطنة في مصر سنة(٧٤٢هـ/١٣٤٢م) لكنه قبض عليه بعد استمراره بها مدة خمسة وثلاثين يومًا وتوفي سنة(٧٤٣هـ/١٣٤٢م). الصفدي، الوافي، ج١٦، ص٢٥١-٢٥٤؛ ابن حجر، الدرر، ج٢، ص٣٨٠؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٦، ص٣٩٢-٣٩٤؛ الدليل الشافي، ج١، ص٣٦٢؛ النجوم الزاهرة، ج١٠، ص١٠١؛ محمد حسين سلامة محاسنة، محاولة الناصر أحمد نقل عاصمة دولة المماليك من القاهرة إلى الكرك (٧٤٢هـ/١٣٤١م)، مجلة المنارة للبحوث والدراسات، جامعة آل البيت, ع٢, مج١٧، ٢٠١١م، ص٢٠٩، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣.

دون حضوره، حتى أن المماليك السلطانية رفعوا قصة للسلطان لزيادة مراتبهم فلم ينفذ الأمير قرار السلطان رغم موافقته، ولهذه الأمور تم القبض عليه في(ذي القعدة٧٤٢هـ/إبريل ١٣٤٢).[٦٦]

وقد قرن البعض موافقة السلطنة على قصته بما فيها من مطالب، مقابل ارشادها إلى خبايا لم تكن تهتدي إليها دونه، فمن ذلك ما سطره المقريزي عن غضب السلطان الملك الصالح إسماعيل(٧٤٣-٧٤٦هـ/١٣٤٢-١٣٤٥م)على الأمير جمال الكفاة[٦٧]، وأصدر أمرًا بمصادرة أمواله وممتلكاته، ما ظهر منها وما بطن، لدرجة أن الأمير خالد المقدم،[٦٨]رفع قصة للسلطان يخبره فيها بمعرفته موضع أموالًا كثيرة لجمال الكفاة، واشترط في أمر احضارها أن يُقيمه في التقدمة، فكان له ما أراد، فأحضر صندوقًا به حوالي عشرين ألف دينار كان جمال قد أودعه عند بعض جيرانه. [٦٩]

وعلى النقيض الآخر، فرغم معلومية كثير من العامة والخاصة بثروات الصاحب شمس الدين غِبريال[٧٠]- الذي حظى بقبول واسع بين العامة والخاصة- الذي صادرت السلطنة كثير من ممتلكاته وأمواله، وفي ظنها أنها أنهت على ثروته، رغم أن ما صُودر جزء يسير من ممتلكاته على حد علم العامة والخاصة، ورغم ذلك لم ترفع فيه قصة لإخبار السلطنة عن تلك الأموال والممتلكات، بل نرى العامة تحتفل به أثناء الإفراج عنه على حد قول الصفدي (ت٧٦٤هـ/١٣٦٣م). [٧١]

(٦٦) المقريزي، السلوك، ج٣، ص٣٦٥؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٦٣.

(٦٧) جمال الدين إبراهيم القاضي، المعروف بجمال الكفاة، ابن خالة شرف الدين النشو الذي استخدمه كأحد كتاب الأموال في الدواوين، ثم استخدمه عند الأمير بشتاك، ثم ولاه السلطان الناصر محمد بن قلاوون نظر الخاص والجيش معًا، وأضيف إليها نظر الدولة، قُبض عليه مرتين وأطلق سراحه، ثم قبض عليه في المرة الثالثة وصودرت أملاكه، وتوفي سنة(٧٤٥هـ/١٣٤٤م). الصفدي، الوافي، ج٦، ص١١٥-١١٦؛ النجوم الزاهرة، ج١٠، ص١١١؛ الدليل الشافي، ج١، ص٣٢؛ مسعد سيد محمد كتبي، الأمير المملوكي يلبغا السالمي حياته وجهوده (ت٨١١هـ/١٤٠٨م)، مجلة كلية اللغة العربية، المنصورة، ع ٣٥، مج٢، ٢٠١٦م ، ص ٧٢.

(٦٨) خالد بن الزراد المقدم كان رقاصًا بدار الولاية، ثم ولي تقدمة الخاصة، ثم تقدمة الدولة، توفي سنة(٧٤٥هـ/١٣٤٤م) بعد معاقبته بمصادرة أمواله لفساده. ابن حجر، الدرر، ج٢، ص٢٠٣؛ المقريزي، السلوك، ج٣، ص٤٢٣.

(٦٩) المقريزي، السلوك، ج٣، ص٤١٣.

(٧٠) شمس الدين عبد الله بن الصنيعة، المعروف بغبريال، كان كاتبًا عند شمس الدين قراسنقر، ثم اتصل بالأمير تنكز وصار تابعًا له فجعله وزيرًا بدمشق، ثم نقل إلى القاهرة، ثم ولي نظر الدولة، لكن ساءت العلاقة بينه وبين الأمير تنكز والناصر محمد بن قلاوون فقبض عليه وأخذ منه أربعمائة ألف درهم، واستدعي للقاهرة فأخذ منه مليون درهم ثم أفرج عنه، ولكن غضب عليه السلطان ثانية فصودرت كثير من ممتلكاته، وتوفي سنة(٧٣٤هـ/١٣٣٤م). الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ص٦٨٣-٦٨٩؛ الوافي، ج١٧، ص٢١٥؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٧، ص٨٩-٩٠؛ الدليل الشافي، ج١، ص٣٨٥؛ النعيمي(عبد القادر بن محمد)، (ت٩٢٧هـ/١٥٢١م)، الدارس في تاريخ المدارس، تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٠م، ج٢، ص٧.

(٧١) الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ص٦٨٧.

وتسجل لنا أخبار القصص ما يستدل منها على أنها صارت من كونها وسيلة لحفظ ماء الوجه وقضاء الحاجات والشكاوى إلى أداة من أدوات الكسب المادي والتطلع للثراء، ومن ذلك فقد رفع الأمير علاء الدين بن القَلَنجُقي[٧٢] قصة إلى الأمير الحاج آل ملك[٧٣]يسأله فيها بزياده إقطاعه، فوافق على منحه مائتي فدان زيادة على ما بيده. [٧٤]

كما أصبحت القصص أحد الوسائل المتبعة من جانب بعض القضاة لتلبية رغباتهم، ومن ذلك أن القاضي جمال الدين بن خير[٧٥]رفع قصة للسلطان برقوق(٧٩٢-٨٠١هـ/١٣٩٠- ١٣٩٩م)في(جمادى الآخرة سنة٧٨٦هـ/يوليو١٣٨٤م) يطلب فيها تدريس المالكية بالشيخونية [٧٦]مستغلًا الخلاف الذي أدى لعزل الشيخ شمس الدين الركراكي[٧٧]مُدرس المالكية بالشيخونية على يد شيخ الشيخونية أكمل الدين البابرتي[٧٨]، وقد أرسل السلطان كثير من العلماء وكبار رجال الدولة لأكمل الدين لإقناعه بعودة الركراكي لمنصبه فرفض، في الوقت الذي غضب فيه السلطان على ابن خير لاستغلاله للموقف السابق، فعزله عن القضاء. [٧٩]

عبرت القصص أيضًا عن رغبة البعض في اعتلاء مناصب عليا في الدولة المملوكية، فمن ذلك نرى أنه حينما عزل الحمصي[٨٠]عن قضاء الشام، توجه إلى القاهرة في (رمضان٨٤٠ هـ/مارس١٤٣٧م) وكتب قصة للسلطان برسباي يطلب

(٧٢) علاء الدين على بن الأمير سيف الدين القَلَنجُقي، أحد مقدمي الحلقة في عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون في سلطنته الثانية، وأحد أمراء العشرة في سلطنة الملك الصالح إسماعيل. المقريزي، السلوك، ج٢، ص٣٧٩، ج٣، ص٣٩٦.

(٧٣) سيف الدين الحاج آل ملك الجوكندار، من مماليك معركة الأَبُلُستين(٦٧٥هـ/١٢٧٧م) "بالقرب من آسيا الصغرى"، اشتراه قلاوون وهو أمير، ترقي في الخدم حتى صار أحد كبار الأمراء بالديار المصرية، ثم ولاه السلطان الناصر محمد بن قلاوون كثير من الأعمال حتى عهد إليه بنيابة السلطنة في مصر، ثم ولي نيابة صفد، ثم استدعاه السلطان الكامل شعبان لمصر فقبض عليه وسجنه وقتله سنة(٧٤٧هـ/١٣٤٦م). المقريزي، السلوك، ج٤، ص٢٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهر، ج١٠، ص١٧٥-١٧٦؛ على مبارك، الخطط التوفيقة الجديدة، المطبعة الأميرية الكبرى، القاهرة، ١٣٠٦هـ، ج٤، ص٤٤؛ محمد زارع الأسطل، الحياة الفكرية والثقافية في مدينة القدس في العهد المملوكي(٦٤٨-٩٢٣هـ /١٢٥٠-١٥١٦م)، أطروحة ماجستير، الجامعة الإسلامية بغزة، ٢٠١٤م، ص٧٩.

(٧٤) المقريزي، السلوك، ج٣، ص٣٩٦.

(٧٥) عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن سليمان بن خير، ولد بالإسكندرية سنة(٧٢١هـ/١٣٢١م)، نبغ في الفقه والحديث والنحو، ولي قضاء المالكية بالقاهرة سنة(٧٨٣هـ/١٣٨١م)، ثم عزل وأعيد للقضاء ومات وهو عليه سنة(٧٩١هـ/١٣٨٩م). ابن حجر، رفع الإصر، ص٢٣٢-٢٣٣؛ إنباء الغمر، ج١، ص٣٨٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص٣٨٦؛ المنهل الصافي، ج٧، ص٢٢٤-٢٢٦؛ الصيرفي، نزهة النفوس، ج١، ص٢٧٧.

(٧٦) الخانقاة الشيخونية، أنشأها الأمير سيف الدين شيخو العمري الناصري سنة(٧٥٦هـ/١٣٥٥م)، بشارع الصليبة. المقريزي، السلوك، ج٤، ص٢١٩؛ وللمزيد راجع: زينب أحمد علي أبو علي، الخانقاة الشيخونية (٧٥٦-٩٢٣هـ/١٣٥٥-١٥١٧م)، كلية الدراسات الإنسانية، جامعة الأزهر، ع٢٤، مج١، ٢٠١٩م، ٢٨٧-٣٧٦.

(٧٧) أبو عبد الله شمس الدين محمد بن يوسف الركراكي، عالمًا بالأصول والمعقول، سجن ونفي إلى الشام، ثم أفرج عنه وولاه الظاهر برقوق قضاء مصر، ثم عزله، وتوفي سنة(٧٩٣هـ/١٣٩١). ابن حجر، إنباء الغمر، ج١، ص٤٣٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص١٢٤؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٨، ص٥٦٦.

(٧٨) الشيخ أكمل الدين محمد بن محمد بن محمود البابرتي، تلقى العلم على يد كثير من علماء حلب والقاهرة، فنبغ في الفقه واللغة العربية، وفوّض إليه الأمير شيخون شؤون الخانقاة، حظى باحترام وتقدير كثير من الأمراء وكبار رجال الدولة والسلاطين، وتوفي سنة(٧٨٦هـ/١٣٨٤م). ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج١١، ص٢٢-٢٤؛ النجوم الزاهرة، ج١١، ص٣٠٢؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٨، ص٥٠٤-٥٠٥

(٧٩) ابن حجر، رفع الإصر، ص٢٣٣؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٧، ص٢٢٥.

(٨٠)عمر بن موسى بن الحسن السراج الحِمصِي ثمَّ القاهري، شافعي المذهب، ولد بحمص سنة(٧٧٠هـ/ ١٣٦٩م)، درس الفقه على يد كثير من علماء بلاد الشام، كما نبغ في النحو، ارتحل إلى مصر سنة(٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م)، ثم عاد إلى الشام سنة(٧٨٧هـ/١٣٨٥م) وولى قضاء طرابلس، ثم عزل وعاد إلى القاهرة، ومنها حاجًا، ثم توجه إلى اليمن، ومنها إلى القاهرة، ثم إلى طرابلس الذي كان فيها بين الولاية والعزل للقضاء، وتوفي سنة(٨٦١هـ/١٤٥٧م). ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ١٣٧؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٦، ١٣٩-١٤١؛ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٥٧م، ج٨، ص٤.

فيها ولايته قضاء الشافعية بمصر وكتابة السر بها، أو ولايته نظر الجيش بالشام، ولكن أمام رغبات البعض في ولاية مثل هذه المناصب ومنهم علم الدين البلقيني[٨١] الذي كان على الخطة نفسها فأعيد إلى منصبة ورفض طلب الحمصي.[٨٢]

وقد يبتهج العامة حال تعيين بعض الشخصيات –التي تلقى قبولًا كبيرًا– في مناصب رفيعة، فيرغبوا بالعمل تحت قيادتها بكتابة قصة تُرفع إليه، ومن ذلك رفعت كثير من القصص في(ربيع الآخر ٧٥٤هـ/مايو ١٣٥٣م) لقاضي القضاة الجديد تاج الدين محمد بن اسحاق بن المناوي[٨٣] لطلب العمل بوظائف القضاء تحت قيادته، وقد وافق على كثير منها، ولكن موافقته لم تكن موضع رضاء كثير من العامة الذين رفعوا نحو ستين قصة للأمير شيخو[٨٤]، للسعي في الوظائف التي وافق عليها المناوي لعدم أهلية هؤلاء الموظفين لتلك الوظائف مما أدي لتنحية هؤلاء الموظفين الجدد.[٨٥]

وبينما كثير من القصص رُفتع بغرض طلب التوظيف، نرى بعض القصص الأخرى ترفعت لطلب الموافقة على الإقالة، كما رفع أمين الدين بن الغنام[٨٦] قصة تلو والأخرى سنة (٧٢٨هـ/١٣٢٨م) إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون لإعفائه عن نظر الدولة فأجيب لطلبه.[٨٧]

وقد يحتاج الفصل في القصص لمزيد من الحكمة وتفحص ما فيها، وإعطاء كل ذي حق حقه دون أن يطغى طرف على الآخر، لكن نجد أن بعض الأمراء المماليك قد غضوا الطرف عن ذلك وأجابوا كل ما رفع إليهم من حاجات وأعطيات دون دراية بتوابع عدم البت فيها، فهذا الأمير آقسنقر السلاري[٨٨]، رُفعت إليه كثير من القصص لطلب أعطيات مختلفة من

---

(٨١) علم الدين صالح بن عمر بن رسلان بن نصير البلقيني، ولد بالقاهرة سنة (٧٩٠هـ/١٣٨٨م)، تربي على يد والده وأخيه قاضي القضاة جلال الدين الذي تفقه على يده، ولي قاضيًا للقضاة سنة (٨٢٥هـ/١٤٢٢م) ثم عزل وولي أكثر من مرة، وتوفي سنة(٨٦٨هـ/١٤٦٣م). ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٦، ص٣٢٧–٣٢٩؛ الدليل الشافي، ج١، ص٣٥١؛ السيوطي (الحافظ جلال الدين عبد الرحمن)، (ت٩١١هـ/١٥٠٥م)، نظم العقيان في أعيان الأعيان، المطبعة السورية الأمريكية، نيويورك، ١٩٢٧م ، ص١١٩؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٣، ص٣١٢–٣١٤. .

(٨٢) ابن حجر، انباء الغمر، ج٤، ص٥٠.

(٨٣) تاج الدين محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن بهاء الدين المناوي، ولد سنة (٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م)، درس الفقه والحديث على يد كثير من العلماء، وولي قضاء العسكر، وقام بتدريس الفقه الشافعي في المشهد الحسيني، والجامع الأزهر، وجامع عمرو بن العاص، كما ناب قاضيًا للقضاة عن عزالدين عبد العزيز بن جماعة، وتوفي(٧٦٥هـ/١٣٦٤م). ابن العراقي، الذيل على العبر، ص١٥٧؛ ابن حجر، الدرر، ج١، ص١٦؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٩، ص٣١٩؛ الدليل الشافي، ج٢، ص٦٠٣؛ النجوم الزاهرة، ج١١، ص٨٥.

(٨٤) سيف الدين شيخو بن عبد الله الناصري، أحد كُتاب الملك الناصر محمد بن قلاوون، ثم صار من أعيان الأمراء في عصر السلطان حاجي، ولي نيابة طرابلس، وسجن بالإسكندرية سنة(٧٥١هـ/١٣٥٠م) ثم أفرج عنه في السنة التالية، كما شارك في خلع السلطان صالح وتنصيب السلطان حسن مرة ثانية، فصار صاحب الحل والعقد في السلطنة، وتوفي سنة (٧٥٨هـ/١٣٥٧م). الصفدي، الوافي، ج١٦، ص ١٢٤–١٢٥؛ المقريزي، السلوك، ج٤، ص٢٣١؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٦، ص٢٥٧–٢٦٢؛ الدليل الشافي، ج١، ص٣٤٦؛ النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٣٢٤–٣٢٥.

(٨٥) المقريزي، السلوك، ج٤، ص١٧٩–١٨٠؛ ابن حجر، رفع الإصر، ص٢٤٦.

(٨٦) الصاحب أمين الدين عبد الله بن الغنام الأسلمي، ولي الاستيفاء، ثم الوزارة ثلاث مرات، ثم ناظر الدولة ثم عزل، ثم ولي نظر النظار بدمشق، وتم استدعاؤه إلى القاهرة سنة(٧٤٠هـ/١٣٣٩م) لولايته الوزارة، لكن قبض عليه بعد أن أوقع حُساده الفتنة بينه وبين الناصر محمد بن قلاوون فسجن حتى قتل خنقًا سنة (٧٤١هـ /١٣٤٠م). الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ص٦٥٨–٦٧٠؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣، ص٢٣–٢٤؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٧، ص٨٣–٨٥؛ الدليل الشافي، ج١، ص٣٨٤؛ النجوم الزاهرة، ج٩، ص٣٢٥–٣٢٦.

(٨٧)المقريزي، السلوك، ج٣، ص١١٠.

(٨٨)الأمير شمس الدين آق سنقر بن عبد الله السلاري، ولي نيابة صفد، ثم غزة، في عصر الناصر محمد بن قلاوون، ثم نائب السلطنة بمصر في عصر الناصر أحمد، قبض عليه وسجن في عصر السلطان الصالح إسماعيل، توفي سنة(٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م). الصفدي، الوافي، ج٩، ص١٨٤؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١، ص٤٦٨؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٢، ص٥٠٣–٥٠٤؛ الدليل الشافي، ج١، ص١٤٢؛ النجوم الزاهرة، ج١٠، ص١٠٥؛

رواتب، وإقطاعات، وأرزاق، وولايات على مختلف الجهات، وملكيات لأراضي يثبت رافع القصة أنها لم تكن بيد أحد، فكان لا يرد أي منها سواء صحيحة أو باطلة، لدرجة أنه عندما كان يقر بمنح إقطاع لأحد ويحضر صاحبه الأصلي الذي تغيب لأسباب مختلفة عن إقطاعه، يُعيد إليه مرة ثانية إقطاعه أو يتم تعويضه بإقطاع آخر، ولما علم السلطان الملك الصالح إسماعيل حدثه في ذلك الأمر، لكنه عارضه بحجة أنه لا يرفض أي طلب للرعية، وكثيرًا ما كانت ترفع إليه القصص وهو يأكل فيترك طعامه ويوقع عليها دون معرفة بما جاء فيها، فغضب السلطان تجاه أفعاله فقُبض عليه وسجن هو وحاشيته في(المحرم٧٤٤هـ/ مايو١٣٤٣م).[٨٩]

ولمزيد من الحكمة التي تحلى بها عبد الله بن تاج الرئاسة،[٩٠] فكانت ترفع إليه كثير من القصص، فينظر فيها ويوقع على ظهرها بالموافقة وتنفيذ ما بها على سبيل الصدقة.[٩١]

وفي المقابل تعرض بعض الأمراء المماليك للاغتيال، حيال رفضهم بعض قصص المطالب والحاجات التي تُعرض عليهم، فمن ذلك أن نهاية الأمير شيخو كانت على يد أحد مماليك السلاح دارية ويدعى قطاوجا، قدم قصة للأمير شيخو لرغبته في الانتقال من وظيفته في الجامكية إلى بعض الاقطاعات السلطانية، فرفض الأمير، فأسرّها قطاوجا في نفسه، حتى سار إلى الأمير وهو جالس في دار العدل، واعتدى عليه بسيفه ثلاث ضربات أودت بنهايته في(٢٠ ذي القعدة٧٥٨هـ/٣نوفمبر ١٣٥٧م).[٩٢]

ولم يكن الاغتيال فقط هو الجريمة التي تلحق ببعض من رفضوا حاجات القصص، بل هناك جريمة أخرى نتجت على الرفض المتكرر لحوائج الرعية، فكان لاجتهاد عدد كبير من الكُتاب واتقانهم كثير من الخطوط، أن غرتهم أنفسهم لتزوير توقيع كبار رجال الدولة على القصص لضمان تنفيذ ما بها من رغبات قد تُرفض، فكانت لكفاءة وبراعة شرف الدين النابلسي[٩٣] التي وصلت إلى تقليد خط القاضي علاء الدين بن الأثير[٩٤]، فقصده كثير ممن رغبوا قضاء حوائج قد ترفع إلى القاضي ويتم رفضها فوقع عليها بنفس توقيع القاضي، ثم يذهب صاحب القصة إلى الموقعين، فيكتب بموافقة القاضي دون أدنى شك في ذلك التوقيع، ثم يتوجه صاحب القصة إلى الدوادار فيرى ذلك الخط المألوف لديه ويرفعه إلى السلطان الذي يوافق عليه وأخيرًا يخرج الكتاب بما يرغب به صاحب القصة، ويُعتمد من كل ما رآه، وقد تعددت هذه الوقعة حتى علم القاضي علاء الدين بذلك فقبض عليه وذهب به إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون، فسجنه ما يقرب من سبع سنين حتى أفرج عنه، وكانت

(٨٩)المقريزي، السلوك، ج٣، ص٣٩٣-٣٩٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٨٦-٨٧.

(٩٠) أمين الدين عبد الله بن تاج الرئاسة الأسلمي، ولي الاستيفاء، ثم الوزارة ثلاث مرات، ثم ولي نظر الدولة ثم عزل، ثم ولي نظر النظار بدمشق، وطلب للقاهرة في عصر الناصر محمد بن قلاوون للوزارة لكن وُشي به عند السلطان فصودرت أمواله وممتلكاته، وتوفي سنة(٧٤٠هـ/١٣٤٠م). الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ص٦٥٨-٦٧٠؛ الوافي، ج١٧، ص٨٨؛ ابن حجر، الدرر، ج٣، ص٢٣-٢٤؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٧، ص٨٣-٨٤؛ الدليل الشافي، ج١، ص٣٨٤؛ النجوم الزاهرة، ج٩، ص٣٢٥.

(٩١) الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ص٦٦٢.

(٩٢) المصدر السابق، ج٢، ص٥٣٤؛ المقريزي، السلوك، ج٤، ص٢٣١؛ الخطط، ج٤، ص١١٨-١١٩؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٦، ص٢٦١؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٥٦٢؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٨، ص٣١٥.

(٩٣) شرف الدين عيسى بن محب النابلسي، قدم إلى القاهرة، برع في الخط واتقنه، زور كثير من التوقيعات وخاصة التوقيع على القصص، فكشف أمره وسجن سبع سنوات، ومات بعد أن أُفرج عنه محترقًا سنة (٧٣٢هـ/١٣٣٢م). الصفدي، أعيان العصر، ج٣، ص٧٢٠-٧٢٢؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤، ص٢٤٥.

(٩٤) علاء الدين على بن أحمد بن سعيد بن الأثير الحلبي الأصل المصري النشأة، عُرف بذكائه، ولاه الناصر محمد بن قلاوون كتابة السر بمصر سنة(٧١١هـ/١٣١١م) حتى مرضه الذي أعجزه عن أداء مهامه وأدى لوفاته سنة(٧٣٠هـ/١٣٣٠م). الصفدي، ج٣، ص٢٦٤-٢٦٦؛ ابن حجر، الدرر، ج٤، ص١٥-١٧.

هذه الحادثة سببًا أن يصدر القاضي تعليماته للموقعين بكتابة أسماءهم على القصص التي ترفع إليهم. [٩٥] ويدعم سببية تلك الحادثة السابقة موقف الأمير طشبغا[٩٦]الذي ولي الدوادارية، ورفعت إليه كثير من القصص، قوبلت بالرفض التام رغم أحقية أصحابها.[٩٧] أوضحت المواقف السابقة مصير القصص بين القبول والرفض، بينما وجدنا بعضها معلقة لا يُنظر إليها، بسبب تخاذل متوليها عن النظر فيها، فهذا شرف الدين بن الوحيد الزرعي[٩٨] تخاذل عن أداء عمله في ديوان الإنشاء، فكانت القصص الواردة إليه "تبيت عنده ولا ينجزها". [٩٩]

٣.٤ توثيق أسباب التمردات والانتفاضات الشعبية

حفظت لنا القصص صورًا مختلفة لأعمال التمردات والانتفاضات الشعبية، جاء على رأسها الصراع الطائفي بين المسلمين وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى فجّرتها أسباب مختلفة، فمن ذلك رُفعت كثير من القصص إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون بدار العدل سنة(٧١٨هـ/١٣١٨م) من الجيران المسلمين القاطنين بجوار كنيسة بربارة بحارة الروم، سجلوا فيها اعترضهم على ما قام به النصارى من تجديدات واضافات للكنيسة، فعهد السلطان لوالي القاهرة علم الدين سنجر الخازن[١٠٠]بتخريب وهدم ما تم تجديده، لكن كثير من المسلمين أمعنوا في إثارة غضبهم بإقامة محراب في الجزء الذي تم هدمه، وأذّنوا وصلوا وقرأوا القرآن فيه، فشكا النصارى ذلك للسلطان الذي أمر بهدم المحراب.[١٠١]

وأسباب أخرى تمخضت عن التفاوت الواضح والانقسام الحاد بين المستويات الاجتماعية خاصة بين المسلمين والنصارى، وقد شهدت القصة التالية على ذلك، فقد تعاظم أمر النصارى على المسلمين وتفاخروا بما هُم عليه من رغد العيش والمناصب الرفيعة في دواوين الدولة المختلفة، والثراء الواسع، والعبيد والجواري الحسنّاوات من الأتراك، والأملاك المختلفة، وازدادوا من تفاخرهم وأذاهم للمسلمين، فازداد غضب المسلمين عليهم وساروا للشريف أبي العباس الصفراوي راغبين نصرته للإسلام وإبلاغه بتجاوزات النصارى عليهم فاجتمع طاز مع كثير من الأمراء، واتفقوا على كتابة قصة على لسان المسلمين يشرحوا فيها الوضع السابق للنصارى، وقد عرضت هذه القصة بدار العدل أمام السلطان حسن(٧٥٥-٧٦٢هـ/١٣٥٤-١٣٦١م)، وأمام بطرك النصارى ورئيس اليهود سنة(٧٥٥هـ/١٣٥٤م)، وقد أقر السلطان تفعّيل بنود العهدة العمرية التي وضعها الخليفة عمر بن الخطاب(١٣-٢٣هـ/٦٣٤-٦٤٤م)، لكن ذلك لم يحد من سياستهم السابقة، فأمعنوا من التفاخر والكبرياء وسوء المعاملة للمسلمين، لذا أصدر السلطان أمرًا بمنعهم من الخدمة في جميع دواوين الدولة، ومنعهم من استخدام المسلمين؛ وغيرها من القرارات التي تحد من نفوذهم، واستمر المسلمين في رفع قصص أخرى للسلطان تتضمن أن النصارى شيدوا

(٩٥) الصفدي، أعيان العصر، ج٣، ص٧٢١-٧٢٢؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤، ص٢٤٥.

(٩٦) طشبغا الناصري، كان جمدار لآنوك بن الناصر بن الناصر محمد بن قلاوون، ثم دوادار في أول عصر السلطان حسن، ثم سار بطالًا إلى دمشق، ثم رجع إلى مصر سنة(٧٥١هـ/١٣٥٠م) وولي الدوادارية، ثم رجع إلى دمشق بطالًا مرة ثانية، وتوفي بها سنة(٧٥٢هـ/١٣٥١م). الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ص٥٨٣-٥٨٥؛ ابن حجر، الدرر، ج٢، ص٣٧٩-٣٨٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٥١؛ المنهل الصافي، ج٦، ص٣٩٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٤٩٧.

(٩٧) الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ص٥٨٤.

(٩٨) شرف الدين محمد بن شريف بن يوسف ابن الوحيد الزرعي، ولد بدمشق سنة(٦٤٧هـ/١٢٤٩م)، عُرف ببراعته في كثير من الخطوط العربية، عهد له بيبرس الجاشنكير بالعمل في ديوان الإنشاء قبل سلطنته، توفي ودفن في البيمارستان المنصوري سنة(٧١١هـ/١٣١١م). الصفدي، أعيان العصر، ج٤، ص٤٦٦-٤٧٢؛ الوافي، ج٣، ص١٢٥-١٢٧؛ ابن حجر، الدرر، ج٥، ص١٩٦-١٩٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٢٠.

(٩٩) الصفدي، أعيان العصر، ج٤، ص٤٦٨؛ الوافي، ج٣، ص١٢٥-١٢٧؛ ابن حجر، الدرر، ج٥، ص١٩٦-١٩٧.

(١٠٠) الأمير علم الدين الأشرفي سنجر الخازن، أحد مماليك السلطان المنصور قلاوون، وأحد الخزان في عصر السلطان الأشرف خليل، وعرف بالخازن، ثم ولي وشدّ الدواوين، ثم ولاية البهنسا، ثم ولاية القاهرة ووشدّ الجهات، وتوفي سنة(٧٣٥هـ/١٣٣٥م). المقريزي، السلوك، ج٣، ص٢٤١.

(١٠١) المقريزي، السلوك، ج٣، ص٤-٥؛ الخطط، ج٤، ص٤٣٨.

كنائس جديدة فرُسم لهم بهدم كل ما استجد من كنائس بعد أن يتم اثبات صحة ذلك الادعاء بواسطة والي القاهرة علاء الدين على بن الكوراني[١٠٢]، لكنهم لم يتمهلوا بل هجموا على كثير من الكنائس وهدموها ونهبوها حتى عجزت الدولة عن كفهم.[١٠٣]

ويبدو أن الهدم السابق للكنائس الذي تجاوز قرارات السلطان، أجبرت النصارى على تقديم مزيد من القصص بغرض الحصول على موافقات توثق ترميم بعض الكنائس التي كادت أن تنهار، دون بناء كنائس جديدة، فقد رفع مجموعة من نصارى الحبشة قصة للسلطان برسباي سنة(٨٤١هـ/١٤٣٧م) يلتمسوا فيها ترميم كنيسة في منطقة بساتين الوزير[١٠٤]، فأذن السلطان لهم، وكلف القاضي بدر الدين العيني[١٠٥] بمتابعة عملية الترميم فقط دون الزيادة في منشآتها. [١٠٦] لكننا نرى من خلال متابعة هذا الحدث أن النصارى استغلوا فترة الاضطراب بين سلطنة برسباي وجقمق(٨٤٢-٨٤٧هـ/١٤٣٨-١٤٥٣م) وقاموا بتشييد مباني جديدة، بناء على قصة رُفعت إلى السلطان جقمق في(شوال٨٤٤هـ/مارس١٤٤١م)، الذي كلف القاضي الشافعي ونائب القلعة تَغرِي بَرْمُش[١٠٧]وجماعة من الناس للتأكد من صحة تلك القصة، وبالفعل وجدوا النصارى قد بالغوا في تحصينها، فجددوا أمامها حوشًا كبيرًا أحاطوه بسور من الحجر الأبيض، وعللوا ذلك بتكرار هجوم اللصوص عليهم، لكن أمر القاضي ونائب القلعة بهدم كل ما استحدث بنائه.[١٠٨]

كذلك وثقت لنا القصص بعض الوقائع التي أتثبت مكر وخداع اليهود، لتحقيق رغباتهم في تشييد مباني جديدة بمعابدهم، فقد بنى اليهود سور حول أحد معابدهم، وقد ضم هذا السور بعض من دور المسلمين التي تهدمت، بغير إذن من السلطات لذا قام الشريف شهاب الدين النعماني بتصعيد ذلك الأمر، حينئذ لجأ اليهود إلى المكر والخديعة ورفعوا قصة لقاضي الحنابلة أظهروا فيها أمرًا مغايرًا لما أحدثوه من أعمال البناء فوافق على قصتهم، ولكن لم يصمت النعماني تجاه هذه الموافقة المشبوهة

---

(١٠٢) علاء الدين على بن الكوراني، تولى ولاية الغربية، ثم كاشف للوجه القبلي، ثم نقل إلى ولاية الغربية، ثم واليًا للقاهرة حتى استعفائه منها سنة(٧٦٤هـ/١٣٦٣م). المقريزي، السلوك، ج٣، ص٢٥٤، ٢٧٨، ٢٩٥، ج٤، ص٣٤، ج٤، ص١٠١؛ الخطط، ج٤، ص١٢٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص٢٥.

(١٠٣) المقريزي، السلوك، ج٤، ص٢٠١-٢٠٤؛ الخطط، ج٤، ص٤١٩-٤٢٠؛ علي أحمد، القضاء في عصر المماليك، مجلة دراسات تاريخية، ع٨٧-٨٨، ٢٠٠٤م، ص٢٨١.

(١٠٤) بساتين الوزير، شرقي بركة الحبش، جنوب مصر القديمة، تنسب إلى الوزير الفاطمي أبي الفرج محمد بن جعفر بن محمد المغربي(ت٤٨٧هـ/١٠٨٥م) وزير الخليفة الحكم المستنصر، وهي حاليًا بالقرب من محافظة الجيزة. المقريزي، الخطط، ج٣، ص٢٧٧؛ عبد الرحمن زكي، بناة القاهرة في ألف عام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦، ص٣١.

(١٠٥) بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى العينتابي، ولد في درب كيكين في(١٧رمضان٧٦٢هـ/٢٠ يوليو١٣٦١م)، ونشأ بعينتاب وحفظ القرآن، ونبغ في علوم الفقه والحديث والتفسير والتاريخ، قدم القدس ومنها إلى مصر، وولي الحسبة، وقضاء قضاة الحنفية، ونظر الأحباس، وتوفي بالقاهرة في(٤ذي الحجة ٨٥٥هـ/ ٢٧ديسمبر ١٤٥١م). ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٦، ص٨؛ السيوطي، نظم العقيان، ص١٧٤؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٩، ص٤١٨؛ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج١٢، ص١٥٠؛ وللمزيد راجع
Anne F. Broadbridge, Academic Rivalry and the Patronage System in Fifteenth-Century Egypt; al-ʿAyn, al-Maqrz, and Ibn Ḥ ajar al-ʿAsqalan|, Mamluk Studies Review,Vol. 3,1999, p86.

(١٠٦) ابن حجر، انباء الغمر، ج٤، ص٦٩.

(١٠٧) تَغرِي بَرْمُش بن عبد الله الجلالي المؤيدي، أصله من بلاد الروم، ثم جُلب إلى حلب فاشتراه الأمير جقمق قبل سلطنته ووفد به إلى مصر ثم صار من جملة المماليك السلطانية الكتابية للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، ثم اشتراه المؤيد شيخ وجعله جمدارًا له، ثم اشتراه السلطان الظاهر ططر وجعله خاصكيًا له، ثم ولي أمير عشرة في عصر السلطان جقمق، ثم نُفي إلى القدس لتدخله في شؤون الحكم، وتوفي في منفاه سنة (٨٥٢هـ/١٤٤٩م). ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٤، ص٦٨-٧٤؛ الدليل الشافي، ج١، ص٢١٩؛ النجوم الزاهرة، ج١٥، ص٥٣٠؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٣، ص٣٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص٢٦٧؛ خالد عبدالله يوسف، أهل العلم والأدب من سلاطين وأمراء دولة المماليك:(٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)، آفاق الثقافة والتراث, ع٩٣، مج٢٤, ٢٠١٦م، ص٨٨.

(١٠٨) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص١٦٢.

حتى تعرّض لمواجهة نقيب القاضي الحنبلي جمال الدين عبد الله الإسكندراني[١٠٩]، وأخبره بحقيقة الأمر، فتغيرت وجهته وأمر بهدم ما تم بنائه من السياجات والأبواب التي أقامها اليهود حول معبدهم، وعلى صعيد آخر رفع اليهود قصة إلى القاضي الحنفي بدر الدين العيني الذي عهد لبعض النواب من شيعة اليهود ويدعى عبد الله البرلسي[١١٠] بتقصي حقيقة ذلك الأمر، وكتابة محضر بحقيقة تلك الواقعة، تضمن المحضر أن الذي تم تجديده مختص بأملاك المعبد دون المساس بممتلكات المسلمين، وإنما كان ذلك تعصبًا من جانب بعض المسلمين، فجاء حكم العيني بإعادة بناء من حكم الحنبلي بهدمه فسارعوا إلى بنائه، عندئذ ألب الشريف النعماني العامة على العيني حتى تم تنفيذ حكم الحنبلي، ثم شهّر النعماني بعبد الله البرلسي، حتى علم السلطان برسباي بخبر هذه الواقعة فأذن لقاضي الشافعي والحنبلي وناظر الأوقاف أن يتوجهوا إلى المكان المذكور ويتم معاينته، عندئذ كان النعماني استكتب شيوخ المصريين في محضر شهدوا فيه أن الذي أعيد بناؤه هو ما أمر بهدمه الحنبلي سابقًا، فما كان من العيني إلا وأن شجع اليهود على كتابة محضر يقروا فيه أن موضع تجديد البناء هو غير ما أمر الحنبلي بهدمه، وحينما نظر السلطان للمحضرين وعاين بنفسه موضع البناء تأكد صدق النعماني والحنبلي، لذا أصدر حكمه بهدم ما تم تجديده لمعبد اليهود ليلًا حتى يتفرق الغوغاء الذين كانوا على استعداد لنهب ممتلكات المعبد عندما يصدر السلطان أمرًا بالهدم. [١١١]

كما دونت لنا القصص بعض المواقف التي تبين حنق العامة على الأمراء الطغاة، وتثبت كثرة مفاسدهم الأخلاقية والمالية، فمن ذلك أن قصة رُفعت إلى دار العدل سنة (٧٣٥هـ/١٣٣٥م) تذكر ظلم النشو[١١٢] وتسلط كثير من أفراد عائلته على الرعية، وكثرة أموالهم المشكوك في مصادرها، وعشق صهره ولي الدولة لشاب تركي يسمى "عمير"، ولما كانت سيرة عمير قد سمعها السلطان الناصر محمد بن قلاوون من الأمير قوصون[١١٣]، فأعتقد السلطان أنه هو من كتبها، واستدعى النشو

(١٠٩) عبد الله بن محمد جمال الدين ابن الدماميني المخزومي الإسكندراني، ولي قضاء الإسكندرية لأكثر من ثلاثين سنة رغم قلة علمه، ولما عزل توجه للقاهرة، ثم نفي إلى المغرب، وتوفي في (ذي القعدة ٨٤٥هـ /مارس١٤٤٢م). ابن حجر، انباء الغمر، ج٤، ص١٩٠؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٥، ص٥٣.

(١١٠) عبد الله بن محمد جمال الدين البرلسي، اهتم في بداية حياته قليلًا بالصوفيه ومصحابة الفقراء ثم تقرب من الفقهاء، وناب في الحكم في بعض البلاد، لكن منع من ذلك للحادثة السابق ذكرها، توفي في (رجب ٨٤٥هـ/نوفمبر ١٤٤١م). ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣، ٣٩٨، ج٤، ص١٩٠؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٥، ص٢٤٦.

(١١١) ابن حجر، المصدر السابق، ج٣، ص٣٩٨-٣٩٩.

(١١٢) شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله المعروف بالنشو، شاب نصراني اشتغل بمهنة الكتابة هو واسرته في ديوان الأمير بكتمر الحاجب، ثم عُزلوا واستمروا بدون عمل حتى طلب الأمير أيدغمش النشو ليعمل كاتبًا عنده لمدة ستة أشهر، عينه بعدها الناصر محمد بن قلاوون مستوفيًا في الجيزية، ثم رقاه إلى وظيفة استيفاء الدولة، ورغب السلطان في اسلامه فأسلم ظاهريًا، وسماه السلطان عبد الوهاب وتلقب بشرف الدين في (ذي الحجة٧٣١هـ/ سبتمبر ١٣٣١م) ثم ادارة ديوان ابنه آنوك في (صفر٧٣٢هـ/نوفمبر ١٣٣١م)، ثم ناظر للخاص في (رجب٧٣٢هـ/مارس١٣٣٢م)، واشتد كره الرعية له بسبب تطبيق سياسة المصادرات، وطرح البضائع، والاحتكار فقبض عليه، وتوفي في سجنه(٢ربيع الآخر ٧٤٠هـ/٧أكتوبر ١٣٣٩م). الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٩، ص٢١٦-٢١٨؛ أعيان العصر، ج٣، ص٢٠٠-٢٠٤؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣، ص٢٣٧-٢٣٨؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٧، ص٣٩٠-٣٩٣؛ النجوم الزاهرة، ج٩، ص٣٢٣؛ حياة ناصر الحجي، أحوال العامة في حكم المماليك(٨٧٦-٤٨٧هـ/٩٧٢١-٢٨٣١م): دراسة في الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية، دار القلم للنشر والتوزيع, ١٩٩٤م، ص٣١٨، ٣٣٠، ٣٣١؛ مسعد سيد محمد كتبي، ناظر الخاص السلطاني النشو وسنواته السبع العجاف(٧٣٢-٧٤٠هـ/ ١٣٣٢-١٣٣٩م)، مجلة كلية التربية، جامعة كفر الشيخ، ع٥، مج٥، ٢٠٠٨م، ص١٨-٧٥؛ سماح عبد المنعم السلاوي، شرف الدين النشو والسلطان الناصر محمد بن قلاوون تآلف ثم انتقام، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ع٢، ٢٠١٢م، ص٩٣-١٢٤.

(١١٣) سيف الدين قوصون بن عبد الله الناصري من خاصة الملك الناصر محمد بن قلاوون، ولاه أمير مائة ومقدم ألف، ثم زوجه ابنته فصار من كبار الأمراء، وتعاظم نفوذه، وبعد وفاة الناصر محمد استبد بأولاده، كما اتهم بأنه حرض على قتل المنصور أبي بكر بن الناصر محمد(٧٤١-٧٤٢هـ/١٣٤٠-١٣٤١م) وإخوته في قوص، ووقعت له محن في سلطنة الأشرف كجك (٧٤٢هـ/١٣٤١م) وأخيه الناصر أحمد(٧٤٢-٧٤٣هـ/١٣٤١-١٣٤٢م)ابني الناصر محمد بن قلاوون، فقبض عليه وسجن وانتهبت أملاكه، وقتل سنة (٧٤٢هـ/١٣٤١م). المقريزي، السلوك، ج٣، ص٣٧١-

وأخبره بهذه التهم وعلى رأسها "سيرة عمير مع أقاربه" لكنه أنكر وحلف على براءة أقاربه من تلك التهم وأخبر السلطان قوصون بذلك، لكنه أصر على صحة ما رُفع في القصة وتبين صدق ما أصّر عليه بعد أن استدعى السلطان "عمير" وأقر بفعلته مع ولي الدين فصرفه السلطان مع أبيه إلى غزة. (١١٤)

وقد تتخذ القصة وسيلة لاغتيال بعض الشخصيات العامة مثل الأمراء الممقوتين من بعض العامة لأسباب مختلفة، وقد شهدت بذلك واقعة اغتيال الأمير عز الدين الحلّي(١١٥) نائب السلطنة بمصر في (ذي الحجة ٦٦٤هـ/سبتمبر١٢٦٦م)عند جلوسه بدار العدل برفقة الصاحب بهاء الدين،(١١٦)وجمع من القضاة، وإذ بشخص من العامة يخترق الصفوف حتى وقف أمام الأمير، الذي ظن أنه سوف يدفع إليه قصته، لكنه أخرج سكين من تحت ثيابه وطعنه في حلقه، فارتد الأمير عليه وضربه برجلة في صدره، فوقع على الأرض وحاول ضرب الأمير مرة أخري ففشل.(١١٧)

وفي خبر آخر ترصده القصص، نجد أن العامة يعبرون عن رأيهم فيمن يتولى الحجابة والوزارة، وهما من شؤون السلطان، لكن عامة الناس يدركون سمات المرشحين لتلك المناصب، خاصة قصر نظرهم في إدارة شؤون الحكم والإدارة، فمن ذلك: رُفعت قصة للسلطان الناصر محمد بن قلاوون حينما عهد بالحجابة للأمير سيف الدين أُلْماس،(١١٨) والوزارة للأمير علاء الدين مُغْلَطَاي الجمالي(١١٩) تُوجه اللوم الشديد إليه لذلك الاختيار حيث أدعت القصة أن الحاجب لم يكن له دراية بشؤون

٣٧٢؛ ابن حجر، الدرر، ج٤، ص٣٠٠-٣٠١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٣؛ المنهل الصافي، ج٩، ص١٠٧-١١٠؛ ولمزيد من التفاصيل راجع: حياة ناصر الحجي، الأمير قوصون : صورة حية لنظام الحكم في سلطنة، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت ، مجلس النشر العلمي، ع٣٢، مج٨، ١٩٨٨م، ص٦-٥٥.

(١١٤) المقريزي، السلوك، ج٣، ص١٨٩-١٩٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص ١١٣.

(١١٥) عز الدين أيدمر بن عبد الله الحلّي الحلبي النجمي، من خواص الظاهر بيبرس، ومن كبار أمراء الدولة، تمتع بثروة كبيرة وحظوة لدى الظاهر بيبرس لدرجة أنه كان يعهد بالنيابة إليه عند توجهه لبلاد الشام، توفي بقلعة دمشق سنة(٦٦٧هـ/١٢٦٨م). الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٠، ص٥؛ النويري(شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)، (ت٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تح: نجيب مصطفى فواز، وحكمت كشلي فواز، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م ، ج٣٠، ص١٠٦؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٣، ص١٧٠-١٧١؛ الدليل الشافي، ج١، ص١٦٧؛ النجوم الزاهرة، ج٧، ص٢٢٧؛ العيني، عقد الجمان، عصر سلاطين المماليك، ج٢، ص٥٦.

(١١٦) الوزير الصاحب بهاء الدين على بن محمد بن سليم، المعروف بابن حنا، ولد بمصر القديمة سنة (٦٠٣هـ/١٢٠٦م)، اشتهر بحبه للرعية وقربه من الفقراء وقضاء حوائجهم، ولي الوزارة في عصر الظاهر بيبرس وابنه محمد بركة خان ومات وهو عليها سنة(٦٧٧هـ/١٢٧٨م). الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢٢، ص٣٠؛ اليونيني(قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد)، (ت٧٢٦هـ/١٣٢٦م)، ذيل مرآة الزمان، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٢م، ج٣، ص٣٨٤؛ ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج٣، ص٧٦؛ ابن الفرات(ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم)،(ت٨٠٧هـ/١٤٠٥م) تاريخ ابن الفرات، تح: قسطنطين زريق، المطبعة الأمير كانية، بيروت، ١٩٤٢م، ج٧، ص١٢٥؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٨، ١٥٠-١٥١؛ الدليل الشافي، ج١، ص٤٦٩؛ النجوم الزاهرة، ج٧، ٢٨٥.

(١١٧) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٣٦-٣٧.

(١١٨) سيف الدين أُلْماس بن عبد الله الناصري، من خواص مماليك الناصر محمد بن قلاوون، اعتقه ثم ولاه أمير مائه ومقدم ألف بمصر، ثم حاجب الحجاب، ثم نائبًا للسلطان، ثم قبض عليه لمحاولة انقلابه على السلطان وقتل سنة(٧٣٤هـ/١٣٣٣م). الصفدي، الوافي، ج٩، ص٢١٣-٢١٤؛ المقريزي، الخطط، ج٤، ص١٠٧؛ ابن حجر، الدرر، ج١، ص٤٨٨-٤٩٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٣٠١؛ المنهل الصافي، ج٣، ٨٩؛ الدليل الشافي، ج١، ص١٥٤.

(١١٩) الأمير علاء الدين مُغْلَطَاي بن عبد الله الجمالي، من كبار مماليك السلطان الناصر محمد بن قلاوون، ولي أمير مائة ومقدم ألف بمصر، ومقدم المماليك، وأستادار، ثم وزيرًا لمدة سبع سنوات حتى مرض فرغب في السفر إلى الحجاز فسافر، وتوفي عند عودته في الطريق سنة(٧٣٢هـ/١٣٣٢م). المقريزي، الخطط، ج٤، ص٢٤٦-٢٤٨؛ ابن حجر، الدرر،ج٦، ص١١٦-١١٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٩١؛ المنهل الصافي، ج١١، ص٢٥٧؛ الدليل الشافي، ج٢، ص٧٣٨؛ كريم محمد عبد الحميد حمزه، مدرسة وخانقاة الأمير مغلطاي الجمالي بحي الجمالية : دراسة أثرية تاريخية حضارية، مجلة اتحاد الجامعات العربية للسياحة والضيافة، كلية السياحة والفنادق، جامعة قناة السويس، ع١، مج١١، ٢٠١٤م، ص١٣.

الحكم والادارة، ولا الأحكام الشرعية، والوزير يجهل كثير من الأمور خاصة القراءة والكتابة، لذا وقع فريسة لدى كبار موظفي الدولة من أرباب الأقلام، فاحتالوا عليه واختلسوا كثير من الأموال، ورغم احتمال صدق أو كذب هذه القصة المرفوعة، لكنها أبصرت السلطان نحو مراقبة إيرادات ومصروفات الدولة، بل وأصدر قراره بعدم صرف أي من الأموال دون الرجوع للسلطان بنفسه. (١٢٠)

كذلك وثقت القصص انتفاضات العامة ضد السياسات المالية التي اتبعها بعض المحتسبين، ووجدت صدى لدى السلطنة، فنظرًا للسياسة المالية التي اتبعها الفار الضامن(١٢١) التي كانت ترمي إلي ضمان المعاملات المالية للدولة بمعني أنه المسؤول عن جمع الضرائب بعد أن يقوم بدفعها جملة واحدة للدولة، ولكنه كثيرًا ما يجمع لحسابه الخاص أكثر مما هو مقرر مما أدى لاحتجاج العامة عليه ورفعوا فيه أكثر من مائة قصة للسلطان حسن سنة(٧٥٢هـ/١٣٥١م)، فقبض عليه وضرب ضربًا مبرحًا، وصُودرت أمواله التي بلغت نحو مائتي ألف درهم وحملت إلى بيت المال. (١٢٢)

٤.٤ إدارة شؤون الحكم

لم يعد أمر إدارة شؤون الحكم مقصورًا على دواوين الدولة المختلفة بل تعداه إلى القصص، التي تتحرك بشكل فردي مباشر بين المرسِل والمرسَل إليه. ومن الجوانب التي تشير أخبار القصص إلى قيامها في إدارة شؤون الدولة أنها كتبت بها تفاصيل المخالفات التي يرتكبها المسؤول، ومن ذلك: أن قصة رُفعت إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون في(ربيع الأول ٧١٣هـ/يوليو١٣١٣م) تشير إلى تعرض البعض لاختلاس كثير من أموال الأوقاف، فعهد السلطان إلى الأمير بدر الدين محمد بن كُنْدُغدي بن الوزيري(١٢٣) بولاية نيابة دار العدل وشد الأوقاف لضبطها، وقد عُرف عن ابن الوزيري الأمانة، والصرامة في الحق، ومعرفته بأمور الأوقاف، فباشر عمله بدار العدل ورفعت إليه القصص وقضى فيها، ثم ألزم مباشري الأوقاف بعمل حساب الأوقاف لمدة عشرين سنة، حينئذ خشى القضاة من مطلبه وطلبوا منه غض الطرف عن ذلك لكنه أصر على طلبه، وعاقب كثير من المباشرين لارتكابهم مخالفات حسابيه متعمدة، فأوغروا ضده صدر القاضي بدر الدين محمد بن جماعة(١٢٤) المعروف بنزاهته ومكانته من العلم، فسعى به إلى السلطان بعد أن ألب علية كثير من كبار رجال

(١٢٠) المقريزي، الخطط ، ج٤، ص٢٤٧.

(١٢١) ناصر الدين الملقب بالفار الضامن أو فار السقوف، ولي إمامًا خاصًا يصلي بالسلطان الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون، ثم ولي الحسبة للسلطان الناصر حسن، لكنه عزل عنها سنة(٧٥٢هـ/١٣٥١م) لاستغلال سلطاته في زيادة فرض الضرائب وارتكابه كثير من المخالفات المالية، وقد صار اللقب وثيق الصلة بشخصيته التي تشبهت بالفأر الذي يستبيح كل شيء. اليوسفي(موسى بن محمد بن يحيى)، (ت٧٥٩هـ /١٣٥٨م)، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تح: أحمد حطيط، ط١، عالم الكتب، ١٩٨٦م، ص٣٩١؛ المقريزي، السلوك، ج٤، ص١٥، ١٤٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص١٧١؛ ابن شاهين، نيل الأمل، ج١، ص٢١٨.

(١٢٢) المقريزي، السلوك، ج٤، ص١٤٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٦٢؛ ابن شاهين، نيل الأمل، ج١، ص٢١٨؛ حياة ناصر الحجي، أحوال العامة، ص٢٥٠؛ محاسن محمد وقاد، مصر في العصر المملوكي: دراسات حضارية، مصر العربية للنشر والتوزيع, ٢٠٠٦م، ص٢٢.

(١٢٣) بدر الدين محمد بن كُنْدُغدي بن الوزيري، كلفه السلطان الناصر محمد بن قلاوون في إعادة حفر خليج الإسكندرية مع بَكْتُوت الخازندار سنة(٧١٠هـ/١٣١٠م) ثم ولي نيابة دار العدل وشد الأوقاف في (ربيع الأول٧١٣هـ/يونيو١٣١٣م)، وتوفي في دمشق في(١٦شعبان٧١٦هـ/٢نوفمبر١٣١٦م). المقريزي، السلوك، ج٢، ٤٨٧ ،٥٢١؛ المقفى الكبير، تح: محمد اليعلاوي، ط٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٦م، ج٢، ص٤٨٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢١٧–٢١٨.

(١٢٤) بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة بن على بن جماعة، ولد بحماة سنة (٦٣٩هـ /١٢٤١م) درس الفقه يد أبيه، وكثير من علماء حماة ودمشق والقدس والقاهرة، تولى قضاء القدس والخطابة بها، ثم ولي قضاء مصر، ثم عاد لقضاء الشام، ثم مصر، وأصيب بالعمى، وتوفي(٢٠جمادي الأولي ٧٣٣هـ /١٣٢٢م). الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢، ص١٥–١٧؛ ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج٣، ص٢٩٧–٢٩٨؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣، ص٣٦٧؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٩، ص٢١٩–٢٢٠؛ الدليل الشافي، ج٢، ص٤٧٨؛ النجوم الزاهرة،

الدولة، فخيّلوا للسلطان أن ابن الوزيري سيئ الأخلاق، له أغراض فاسده يسعى لتحقيقها من خلال منصبه، كما أنه قصد إهانة القضاة والتشكيك في ذمتهم، والنيّل من أهل العلم والحط من قدرهم، ولهذه الأسباب ضج الكثير بالدعاء على السلطان فعزله. (١٢٥)

ولم تكن قصة ابن الوزيري هو القصة الوحيدة التي نبهت السلطان إلى ضرورة حماية أملاك الأوقاف، بل سبقتها قصة رفعت إلى السلطان الملك الظاهر بيبرس في (رجب٦٦٢هـ/ مايو ١٢٦٤م)، تخبره بأن هناك موضعًا بالقرب من مسجد يقع بجوار باب المشهد الحسيني، قد بيع بستة آلاف درهم ودخلت هذه الأموال في حسابات الديوان، فأمر السلطان برد هذه الأموال وإعادة إنشاء المسجد على المساحة الكلية على نفقته. (١٢٦)

كانت القصص أيضا دليل إدانة للأمراء بسبب تجاوزات بعضهم في حق الرعية، فقد اشتملت إحداها على استغاثة من أحد الموقعين للسلطان برقوق يشكو فيها سوء معاملة الأمير بكلمش(١٢٧)حتى ضربه ضربًا مبرحًا –مات بسببه بعد قليل–، ولم يَكُف عنه رغم توسله بل أنه رد عليه بقوله أنه لن يتركه حتى يجيء الليث يخلصه من الذئب، وقد أشار لذلك في قصته بقوله للسلطان "أتأكلني الذئاب وأنت ليث"، فغضب السلطان من ذلك وقبض على الأمير. (١٢٨)

كذلك كانت القصص وسيلة لتنبيه السلطان لانتشار بعض السلوكيات بين الأمراء تتنافي مع الشريعة الإسلامية، والآداب العامة الغير مقبولة في نفوس المصريين، فمن ذلك أن رُفعت قصة للسلطان الناصر محمد بن قلاوون في (٧٣٨هـ/١٣٣٨م)، تشير إلى اصطحاب الأمير ملكتمر الحجازي(١٢٩) كثير من المماليك السلطانية وأرباب الملاهي لرحلة نيلية أرتكب فيها كثير من الفواحش من شرب للخمر، والزنى، والشذوذ الجنسي، والاعتداء على حرمات المسلمين، عندئذ استدعى السلطان الأمير وهدده بالقتل إن عاد لتلك الأفعال، كما أمر بنفي ستة وثلاثين من المماليك الذين كان يعاشرهم الحجازي، كذلك نفي أربعين مملوكًا من المقربين للأمير بسبب شرب الخمر. (١٣٠)

ج٩، ص٢٩٨–٢٩٩؛ عبد الغفور غلام عبد الغفور، جهود القاضي بدر الدين بن جماعة في التفسير دراسة ونقدًا، أطروحة ماجستير، جامعة العلوم الإسلامية العالمية، كلية الدراسات العليا، الأردن، ٢٠١٢م، ص٨–١٠.

(١٢٥) ابن جماعة الكتاني(بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله)، (ت٧٣٣هـ/١٣٢٢م)، غرر البيان من لم يسم في القرآن، دراسة وتحقيق: عبد الجواد خلف، ط١، دار قتيبة، بيروت، ١٩٩٠م، ص٩٦؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٤٨٧؛ محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر(٦٤٨–٩٢٣هـ/١٢٥٠–١٥١٧م)دراسة تاريخية وثائقية، دار النهضة العربية،١٩٨٠م، ص١٢٥.

(١٢٦)المقريزي، المصدر السابق، ج٢، ص٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص١١٣.

(١٢٧) سيف الدين بَكْلِمِش بن عبد الله العلائي، من مماليك الأمير طيبغا الطويل، ولي أمير طبلخاناه ورأس نوبة في عصر الظاهر برقوق، ثم سجن بعد خلعه، ثم أفرج عنه، وحينما عاد برقوق للسلطنة أنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف، ثم أمير آخور، ثم سجنه، وأطلق سراحه، ثم ولاه أمير سلاح، ثم سجنه وأفرج عنه وأرسله للقدس بطالًا، واستقر بها حتى وفاته سنة(٨٠١هـ/ ١٣٩٩م). ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢، ص٦٩؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٣، ص٤١٤–٤١٥؛ الدليل الشافي، ج١، ص١٩٦؛ النجوم الزاهرة، ج١٣، ص٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٥٥٠.

(١٢٨) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢، ص٢٨–٢٩.

(١٢٩) مَلِكْتَمُر بن عبد الله الحجازي الناصري، اشتراه السلطان الناصر محمد بن قلاوون من الحجاز بما يزيد عن مائة ألف درهم، فعرف بالحجازي، وقيل عرف بالحجازي لاتخاذه زي الحجازيين غطاء لرأسه، حظى عند السلطان بنفوذ واسع حتى زوجه ابنته "خوند تتر الحجازية"، وقتل بتحريض من السلطان المظفر حاجي سنة(٧٤٨هـ/١٣٤٧م). ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٦، ص١٢٠–١٢١؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج١١، ص٢٦٩–٢٧٠؛ الدليل الشافي، ج٢، ص٧٤١؛ النجوم الزاهرة، ج١٠، ص١٨٤؛ ابن شاهين، نيل الأمل، ج١، ص١٤٥؛ صلاح الدين محمد نوار، الطوائف المغولية في مصر: تأثيراتها العسكرية والسياسية والاجتماعية واللغوية والعمرانية في عصر دولة المماليك البحرية، (٦٥٨–٧٨٣هـ/١٢٦٠–١٣٨١م)، منشأة المعارف بالإسكندرية, ١٩٩٦م، ص١٤٦.

(١٣٠) المقريزي، السلوك، ج٣، ص٢٤٨.

ولدينا شاهد عيان على استغلال كبار الأمراء لنفوذهم، لتحقيق مصالحهم الشخصية على حساب الآخرين، فمن ذلك أن الشهابي أحمد بن أسنبغا الطياري[١٣١] رفع قصة إلى السلطان قايتباي سنة(٨٨٣هـ/١٤٧٨م)، يشكو فيها الأمير قانصوة خمسمائة [١٣٢]، بسبب انشائه متنزها خاصًا به في قناطر السباع[١٣٣] بالقرب من بيت أحمد بن أسنبغا، وفتح بابًا في الجهة المقابلة لمنزله بغير طريق شرعي، كما قام بقطع عدة أشجار خاصة بمنزله، فوبخ السلطان قانصوه بالكلام وأمره أن يسد الباب الذي فتحه، وأن يدفع ما قيمته من أموال جزاءً لقطع الأشجار.[١٣٤]

لكننا نري في أحيانًا أخرى أن ذلك النفوذ الذي كان للأمراء، يرغب البعض في استغلالها لرفع قصصهم للسلطان حتى تجد صدى يحقق من وراء ذلك مصالحهم، ومن ذلك أن أحد التجار طلب من الأمير سيف الدين بغا [١٣٥]رفع قصته للسلطان الناصر محمد بن قلاوون بسبب ما أصابه من سياسة شرف الدين النشو التي تهدف إلى إجبار التجار على شراء البضائع بضعفي ثمنها "وهو المعروف بسياسة طرح البضائع"، وعلى اثرها استدعى السلطان النشو وعاتبه على موقفه في حضور التاجر، لكن النشو برر موقفه بأن ذلك التاجر مدين للسلطان بمبلغ ثلاثين ألف دينار، وهرب قبل سدادها وقد تيقن السلطان من صدق قول النشو الذي أستغل ذلك الموقف، واتهم الأمير بغا بالرشوة ظنًا منه أن التاجر قدم له رشوة لتنال قصته عند السلطان صدي أكبر خاصة لأنها رُفعت ضد أحد كبار رجال الدولة، وكانت هذه القصة سببًا في عزل الأمير بغا.[١٣٦]

ونظرًا لأن آلية رفع القصص وعرضها على السلطان، لم تصطدم بالترتيب الهيكلي للإدارة المملوكية الذي كان الأمراء جزءًا أساسيًا منه، ولو كان ذلك لاستطاع هؤلاء الحيلولة بين وصول بعض القصص التي تمسهم من قريب أو بعيد وبين السلطان، لذا وجدنا كثير منهم يهرعوا لأداء حقوق كثير من العامة الذين كادوا على وشك أن يتظلموا للسلطان الناصر محمد بن قلاوون بقصصهم بناء على أوامره للنقباء في (جمادى الأولى٧١١هـ/أكتوبر ١٣١١م) بالطواف في أرجاء البلاد للتنبيه بأن

(١٣١) أحمد هو ابن للأمير سيف الدين أسنبغا بن عبد الله الناصري الطياري، دخل أبيه في خدمة الأمير سودون الطياري، لذا نسب إليه، وغلب عليه وصار دواداره والمتحدث عنه في كافة أموره حتى وفاته سنة(٨١٠هـ/ ١٤٠٨م)، ثم اتصل بخدمة الناصر فرج فصار من جملة صغار الدوادارية، ثم أمير عشرة ومقدم البريدية في عصر السلطان برسباي، ثم رسم له بالتوجه إلى شد بندر جده لحصر أموال السلطنة، ثم أوقع الحُساد بينه وبين السلطان حتى أمر بنفيه إلى طرابلس، ثم أنعم عليه بإمرة طبلخاناه، ثم نقل إلى دمشق، ثم إلى مصر حيث أنعم عليه بإمرة عشرة ثم الحجوبية الثانية وأمرة طبلخاناه حتى وفاة السلطان برسباي(٨٤١هـ/١٤٣٨م)، وسلطنة ابنه العزيز يوسف فنقل إلى الدوادارية، ثم نقله جقمق إلى إمرة مائة وتقدمة ألف حتى وفاته (٨٥٧هـ /١٤٥٣م). أما أحمد فلم يرد ذكر له في أي من المصادر. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٢، ص٤٣٧-٤٤٠؛ الدليل الشافي، ج١، ص١٣٢؛ النجوم الزاهرة، ج١٦، ص١٦٢؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٢، ص٣١١.

(١٣٢) قانصوه الأشرفي خمسمائة، من مماليك السلطان قايتباي، ترقى في المناصب حتى صار دوادارًا، ثم أمير آخور، ثم أتابكا للعسكر، ثم سلطانًا لمدة ثلاثة أيام، توفي سنة(٩٠٢هـ/١٤٩٧م) على اثر هزيمته في واقعة خان يونس. السخاوي، الضوء اللامع، ج٦، ص١٩٩؛ ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص٣٤٥، ٣٧٠؛ عثمان إسماعيل الطل، علاقة المماليك مع القبائل العربية في مصر(٨٦٥-٩٢٣هـ/١٤٦٠-١٥١٧م)، كلية الآداب، جامعة القدس، ع٢٧، ٢٠١٩، ص١٠٥.

(١٣٣) قناطر السباع، أنشأها السلطان بيبرس البندقداري، ونصب عليها سباعًا حجرية، وذلك لاتخاذه الفهد "السبع" شعارًا له، وقد ظلت قائمة حتى ردمت سنة(١٣١٥هـ/١٨٩٨م) وموضعها الآن ميدان السيدة زينب. المقريزي، الخطط، ج٣، ص٢٦٠، محمد الششتاوي، متنزهات القاهرة في العصرين المملوكي والعثماني، دار الآفاق العربية القاهرة، ط١، ١٩٩٩م، ص ١٩٨-٢٠٠.

(١٣٤) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص١٤٥-١٤٦.

(١٣٥) سيف الدين بغا الدوادار الناصري، ولي دوادارًا للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، اتسم براجحة العقل وحبه لأعمال الخير، رُمي بسهام شرف الدين النشو، فاتهمه بالرشوة فعزله السلطان من منصبه، وتوفي سنة(٧٣٧هـ/١٣٣٧م). الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٠، ص١١١؛ أعيان العصر، ج١، ٦٩٤-٦٩٥؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص١٣.

(١٣٦) الصفدي، أعيان العصر، ج١، ص٦٩٥؛ المقريزي، السلوك، ج٣، ص١٩٥-١٩٦.

من له مظلمة، يتوجه إلى دار العدل لينظر السلطان في قصته، أما البعض الآخر من الأمراء الذين رفعت فيهم كثير من القصص، قرأها الموقعون على السلطان، فحكم فيها وأنصف. (١٣٧)

أما بالنسبة للقضاة، فرغم تلك المكانة لهم في منظومة السلطة، باعتبارهم أداة من أدواتها، فإن أخبار القصص قد حفظت لنا بعض المواقف التي يختصمُ فيها أحدُهم السلطان عنْدَ القاضي، فمن ذلك أن رفع أحد الأمراء قصة إلى القاضي تاج الدين بن بنت الأعز (١٣٨)، يختصم فيها السلطان الظاهر بيبرس باستيلائه على بئر يزعم امتلاكه، فطلب القاضي حضور السلطان والأمير إلى المدرسة الصالحية (١٣٩)، وقد تبين بالأدلة العادلة أحقية السلطان في القصة المرفوعة ضده فحكم القاضي بملكيته البئر.(١٤٠)

ولما كان القاضي هو الحَكم في الموقف السابق بين السلطان والأمير، نري أن السلوكيات الفاسدة لأبناء القضاة تتسبب في وقوفهم بين يدي السلطان في موضع محرج، ومن ذلك فقد رفعت قصة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة (٧٣٨هـ/١٣٣٧م)، بسبب فساد أبناء القاضي جلال الدين محمد القزويني وخاصة ابنه جمال الدين عبد الله الذي اتسم بكثرة اللهو والرشوة والفساد، مما أجبر القاضي على الاستعفاء من منصبه.(١٤١)

وفي بعض الأحيان تكون القصة أحد الوسائل الشرعية، التي يستخدمها السلطان للإيقاع ببعض القضاة المعارضين له، رغم براءتهم فيما نسب إليهم، فمن ذلك رفعت قصة للسلطان برقوق تتهم قاضي القضاة ابن بنت بالحصول على مبالغ مالية تصل نحو ثلاثين ألف درهم، وألف وخمسمائة مثقال من الذهب من أموال الأيتام، فتم استدعاءه لمجلس جمع فيه السلطان كثير من القضاة، وما لبث أن أُغشي عليه، فشفع فيه بعض الحاضرين، فرفض السلطان شفاعتهم بشدة، وتُرك مدة طويلة حتى أفاق ولم يساعده أحد، وتم توجيه هذا الاتهام إليه فلم ينكر بل أقر بأنه اقترضه ليُكمل به المحمل المرسل للحرمين الشريفين، ورغم ذلك سجن وأجبر على دفع ذلك المبلغ من ماله الخاص، ثم استقر بداره حتى ذهبت عينه، وفارقه كثير من المقربين إليه –خشية من نفوذ السلطان– حتى مات. (١٤٢)

---

(١٣٧) المقريزي، السلوك، ج٢، ص ٤٦٩.

(١٣٨) أبو محمد عبد الوهاب بن خلف بن بدر العلامي المصري الشافعي، عُرف بابن بنت الأعز، لأن جده لأمه هو الأعز بن شكر وزير الكامل والعلامي، نسبة إلى علامة وهي قبيلة من لخم، ولد سنة (٦٠٤هـ/١٢٠٨م)، درس الفقه والحديث، ولي قضاء القضاة بالديار المصرية، والوزارة، ونظر الدواوين، توفي بمصر سنة(٦٦٥هـ/١٢٦٧م). السبكي، طبقات الشافعية، ج٨، ص٣١٨–٣٢٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧؛ ص٢٢٢؛ السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر)، (ت٩١١هـ/١٥٠٦م)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط١، مصر، ١٩٦٧م، ج١، ص٤١٥؛ محمد الزحيلي، العز بن عبد السلام سلطان العلماء وبائع الملوك الداعية المصلح القاضي الفقيه الأصولي المفسر (٥٧٧–٦٦٦هـ)، دار القلم دمشق، ١٩٩٢م، ١٥٤–١٥٥؛ محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، المطبعة النموذجية، القاهرة، ١٩٦٢م، مج١، ج٢، ص٩١–٩٤؛ وللمزيد راجع: مشتاق كاظم عاكول المياح، محن العلماء بمصر في العصر المملوكي تقي الدين ابن بنت الأعز (ت٦٩٥هـ/١٢٩٥م) أنموذجًا، عدد يناير– مارس، مج٤٦، ٢٠١٨م، ص٣١١–٣٤٠.

(١٣٩) المدرسة الصالحية، تنسب إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب، وضع أساسها في (١٤ربيع الأول سنة٦٤٠هـ/١٠سبتمبر١٢٤٢م)، على موضع القصر الفاطمي الشرقي، وقد بدأت الدراسة بها في العام التالي. المقريزي، الخطط، ج٤، ص٢١٧؛ عبد الرحمن زكي، بناة القاهرة، ص٢٤–٢٥.

(١٤٠) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣١٢ .

(١٤١) المقريزي، السلوك، ج٣، ص١٤٦، ٢٣٧–٢٣٨؛ ابن حجر، رفع الإصر عن قضاة مصر، ص٣٦٨

(١٤٢) ابن حجر، المصدر السابق، ص٣٦٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص١٤٦–١٤٧؛ المنهل الصافي، ج١٠، ص٩٦.

وقد وجدت الدعابة سبيلًا لها أثناء عرض بعض القصص على القضاة، فمن ذلك عرضت قصة على القاضي ابن جماعة[١٤٣]، فيها دعوى شرعية على شخص يسمى أسدًا فكتب القاضي "إن كان وحشيًا فلا يحضر". [١٤٤]ولما كان التعليق السابق على محتوى القصة بذكر بعض الحيوانات المفترسة، أضحى مثارًا للدعابة، نرى ذكر بعض الحيوانات الأخرى مثارًا للسخرية والغضب أثناء عرض بعض القصص، فمن ذلك أن الشيخ أبو العباس أحمد بن موسى الزرعي، قدم على الناصر محمد بن قلاوون بقلعة الجبل، ورأى معه كيس من جلد فسأله الناصر عن هذا الكيس ظنًا منه أنها هدية له، وقد أجاب الشيخ بصدق ظن الناصر بكونها هدية، لكنها من حيات وعقارب –لشدة ما ورد فيها من شكاوى ومظالم–، وعندئذ أخرج قصص المظالم وعرضها على السلطان فحكم فيها وأجاب على جميعها. [١٤٥]

وجدت القصص سبيلًا لها بين فقهاء العصر المملوكي فكانت شاهد عيان على كثير من الخلافات بين الفقهاء، ولم تجد لها حلاً إلا يد السلطان لحسم ذلك الخلاف، ومن ذلك أن الأمير علم الدين سنجر الجاولي[١٤٦]،عهد لشهاب الدين أحمد العسجدي[١٤٧] تدريس الحديث بالقبة المنصورية في(رمضان٧٣٨هـ/ ابريل١٤٣٤م)، فطعن فيه كثير من القضاة والعلماء ورفعوا قصة بدار العدل للسلطان الناصر محمد بن قلاوون بالقدح في أهليته للتدريس، لذا أمر السلطان بعقد مجلس يضم كثير من القضاة والفقهاء لحسم الأمر في أهلية العسجدي للتدريس، وتضاربت الآراء ما بين مؤيد ومعارض للعسجدي، لكن حسم السلطان الأمر في النهاية بمنع العسجدي من التدريس في القبة المنصورية، فغضب الجاولي تجاه قرار السلطان، بل همّ بإقالة نفسه من نظر المارستان لولا تحذير كثير من الأمراء المقربين إليه من عاقبة ذلك.[١٤٨]

---

(١٤٣) إبراهيم بن عبد الرحمن وقيل عبد الرحيم بن محمد بن سعد الله بن جماعة، ولد سنة(٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م) نبغ في علوم الفقه واللغة، ولي خطابة المسجد الأقصى، ثم قضاء مصر سنة(٧٧٣هـ/١٣٧١م) مرتين، ثم عزل وولي قضاء دمشق ومات وهو عليها سنة(٧٩٠هـ/١٣٨٨م).ابن حجر، الدرر، ج١، ص٣٨؛ إنباء الغمر، ج١، ص٣٥٥؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج١، ص٩٧–٩٨؛ الدليل الشافي، ج١، ص١٩؛ النجوم الزاهرة، ج١١، ص٣١٤؛ الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، ج١، ص١٧٩؛ أحمد عثمان رفه، بنو جماعة (الجماعات) نسب واعلام، دار الجنان للنشر والتوزيع، ٢٠٢٠م، ص٩١؛

Al-Farran, Abdel-Hamid Jamal, Texts from the Sheikhdom of Fakhr Al-Din Ibn Al-Kwaik Fakhr Al-Din Muhammad Bin Abdul Latif Bin Al-Kwaik (T: 769 AH /1368 AD), International Journal of History and Cultural Studies, V6, N4, 2020, P52.

(١٤٤) ابن حجر، انباء الغمر، ج١، ص٢٦٥؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٨، ص٤٨٨.

(١٤٥) المقريزي، السلوك، ج٤، ص٢٥٩.

(١٤٦) الأمير علم الدين أبو سعيد سنجر بن عبد الله الجاولي، ولد بآمد "جنوب شرق الأناضول" سنة (٦٥٣هـ/١٢٥٥م)، شافعي المذهب، رتب مسند الشافعي وشرحه في مجلدات، وولي نيابة الشوبك في عصر السلطان كتبغا، ثم ناظر الحرمين الشريفين، ونيابة حماة ثم غزة والقدس ونابلس وقاقون في عصر الناصر محمد بن قلاوون، ورغم ذلك سجنه في(٧٢٠هـ/١٣٢٠م) ثم أفرج عنه في(٧٢٨هـ/١٣٢٧م)، ثم أعيد للخدمة مرة ثانية أميرًا على أربعين فارس ثم أمير مائه، ثم مقدم ألف، ثم قربه إليه وجعله من أمراء المشورة، وتوفي سنة(٧٤٥هـ/١٣٤٥م). الصفدي، الوافي، ج١٥، ص٢٩٢–٢٩٣؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٣١٦–٣١٨ ؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٦، ص٧٤–٧٦؛ الدليل الشافي، ج١، ص٣٠٤؛ النجوم الزاهرة ، ج١٠، ص١٠٩؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٦، ص١٤٢–١٤٣؛ عثمان إسماعيل الطل، الأمير سنجر بن عبد الله الجاولي الشافعي ومنجزاته العمرانية في الشام(٦٥٣–٧٤٥هـ/١٢٥٥–١٣٤٥م)، مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية، ع١، مج٢٣، ٢٠١٥م، ص٢٩٦–٢٩٨.

(١٤٧) أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم العسجدي، ولد سنة(٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م)، أديبًا محدثًا، درس الفقه على المذهب الشافعي على يد كثير من علماء عصره في مصر ودمشق، وتولى مشيخية الفخرية بالحسينية، والجاولية، كما تولى تدريس الحديث بالمنصورية والفخرية، وتوفي(٧٥٨هـ/١٣٥٧م). الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٨، ص٢٨–٢٩؛ السبكي(تاج الدين عبد الوهاب بن على)،(ت٧٧١هـ/١٣٧٠م)، معجم الشيوخ، تح: بشار عواد معروف وآخرون، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٤م، ص١٣٣؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١، ص٣١٨–٣١٩.

(١٤٨) المقريزي، السلوك، ج٣، ص٢٤٤.

كما رفع أحد الفقهاء يدعى شهاب الدين القلقيلي في (رجب ٨٧٩هـ/ نوفمبر ١٤٧٤م) قصة إلى السلطان قايتباي، يشكو فيها الشيخ عبد البر بن الشحنة[١٤٩]، لأنه سلط عليه غلمانه وعبيده فضربوه ضربًا مبرحًا، كما ادعى عليه جهله في أمور الدين، بل أنه لا تصح الصلاة خلفه، لخطأه في قراءة الفاتحة، فاستدعى السلطان ابن الشحنة وكثير من المشايخ الذين قرأ عليهم ابن الشحنة، فأثنوا على قراءته، في الوقت نفسه أصرّ القلقيلي على خطأه بقراءة الفاتحة، فما كان من السلطان إلا أن أمر بضربه، وإحالته للقضاء للبت في أمره. [١٥٠] وقد حفظت لنا القصص معلومات عن كثير من فقهاء العصر المملوكي، فمثلا نرى السخاوي يتحدث عن هامش قصة مؤرخة بسنة(٨٠٦هـ/١٤٠٤م)، تخبرنا عن بعض فقهاء العصر المملوكي الذي تتلمذ على أيديهم.[١٥١]

ولا يغيب التجار عن استخدامهم القصص كسلاح معارض للممارسات التعسفية من جانب الجباه، الذين اشتدت وطأتهم عليهم، وقد وجدت هذه القصص صدى لدى السلطان فرج بن برقوق أثناء وجوده في الإسكندرية سنة(٨٢٤هـ/١٤٢١م)، فأصدر أمرًا بتقليل ما يؤخذ منهم من الثلث إلى العشر، فضج التجار المغاربة له بالدعاء له. [١٥٢]

كذلك طرقت القصص أبواب السجون لتنجح في وصول كلمة ربما تغير في مصير محتوم، ففيها رفع القاضي المسجون شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري قصة إلى الناصر محمد بن قلاوون في (ربيع الأول٧٤٠هـ/سبتمبر١٣٣٩م) يطلب العفو عن كاتب مسجون معه قد زور خط السلطان،- وكادت أن تقطع يده لولا شفاعة القاضي شهاب الدين وقت أن كان مباشرًا لعمله في وظيفة كاتب السر، واكتفى السلطان بسجنه،- وكان السلطان قد نسي أمره، فلما سأل خاصته عنه، أجابوا بمعرفة القاضي شهاب الدين بخبره، فاستدعاه على الفور وأخبره بأمره، فأفرج عنه وعن شهاب الدين أيضًا. [١٥٣]

٥.٤ حركة القصص بين الخاصة

١.٥.٤ صورة القصص

ارتبطت كتابة القصص بقواعد معينة لتتخذ شكلًا ثابتًا يدار في فلك الإدارة المملوكية، فقد جرت العادة أن يترك مساحة قليلة في أول الورقة، ويترك مساحة أيضًا في آخر الورقة تستخدم كهامش، وفي بداية الورقة تكتب البسملة ويكتب تحتها مباشرة "المملوك فلان يقبل الأرض، ويُنهي كذا وكذا"، ثم يُقال: وسؤاله كذا وكذا"، فإن كان للسلطان "وسؤاله من الصدقات الشريفة كذا وكذا، وإن كان السؤال لغير السلطان قال: "وسؤاله من الصّدقات العميمة كذا وكذا" ثم يُنهي حديثه بحمد الله والصلاة والسلام على رسوله، وفي بعض الأحيان يكتب في حاشية القصة عند نهاية طرف البسملة "المملوك فلان" أو "الفقير إلى الله تعالى"، ثم يبتهل إلى الله تعالى بصالح الأدعية. ورغم اتباع سياسة المساواة في عرض القصص على ولاة الأمور لكننا نرى أن الأمراء وغيرهم من كبار رجال الدولة اتخذوا مسلكًا ظاهرًا في كتابة القصة يتضح ذلك بكتابة " الملكيّ الفلانيّ" مضيافًا

(١٤٩) عبد البر بن محمد بن محمد بن محمود سري الدين، المعروف بابن الشحنة، ولد بحلب سنة(٨٥١هـ/ ١٤٤٧م)، ثم انتقل إلى القاهرة مع أسرته، حفظ القرآن الكريم، وتلقى العلم على يد كثير من العلماء في بيت المقدس ومصر، تولى قضاء حلب، وقضاء القاهرة، وتوفي بحلب سنة(٩٢١هـ/١٥١٥م). السخاوي، الضوء اللامع، ج٤، ص٣٣-٣٥؛ الغزي(نجم الدين محمد بن محمد)، (ت١٠٦١هـ/١٦٥١م)، الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، تح: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ج١، ص٢٢٠-٢٢١؛ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج٥، ص٧٧.

(١٥٠) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص١٠١.

(١٥١) السخاوي، الضوء اللامع، ج١٠، ص١٣٨.

(١٥٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص١٠٢.

(١٥٣) المقريزي، السلوك، ج٣، ص١٩٨ ،٢٧٥-٢٧٦.

لقب سلطانه تحت البسملة مباشرة بعد أن يترك مسافة بسيطة منها. وقد اعتاد الكثير على قطع جزء يسير من القصة من ناحيتها اليمنى من الجهة السفلى، استنادًا لكراهية التّربيع. (١٥٤)

٢.٥.٤ أثر الأسلوب البلاغي لكتابة وقراءة القصص

قد يتبادر إلى ظنّ الباحث في التاريخ الإسلامي أن القصص كانت تصاغ بلغة جافة، تتناسب مع متطلباتها الوظيفية، لكن القناعة التي تبلورت لدينا، عبر مسارات الدراسة، تشير إلى تنوع هائل في أهداف وأغراض القصص، وقد دخلت الأغراض الثقافية في هذا التنوع، بما أوجد درجة واضحة من درجات الحرص على بلاغة لغتها ونصاعة صياغتها، وقد انعكس هذا الحرص الأسلوبي الناتج من انخراطها في الشؤون الثقافية على مختلف الشؤون الأخرى: السياسية والاجتماعية، ولم يكن التأثير الواضح الذي أحدثته القصص في متلقيها من السلاطين والأمراء والوزراء ناتجًا عن فحواها المضموني بقدر ما كان ناتجًا عن بلاغتها الأسلوبية، حتى سارت سمة من سمات التفوق الأدبي لكثير من الكُتاب فقد شهدت بذلك رسالة الصفدي لشرف الدين عبد الوهاب بن البارنباري(١٥٥)، وفيها يُعظم من شأنه وشأن والده في حقل الأدب والكتابة، وقد أشار في رسالته إلى الإبداع الفني في كتابة ابن البارنباري للقصص. (١٥٦)

ولم يكن الثناء هو الجائزة التي يربحها ممن دل نبوغه في الكتابة بصفة عامة، والقصص بصفة خاصة، فقد حرصت السلطنة على استخدامهم في دواوينها، دّل على ذلك استخدام الناصر محمد بن قلاوون القاضي شرف الدين بن شهاب الدين(١٥٧) الذي عرف بحسن كتابته على الرقاع وتوقيعه على القصص في ديوان الإنشاء سنة(٧٣١هـ/١٣٣١م) (١٥٨)

اعتبرت أيضًا قراءة القصص من الأهمية التي جعلت السلطان نفسه، يستمع لمن يقرأها –لإظهار الملكة البلاغية والأدبية– ليتم إقراره بوظائف الدولة المهمة، فقد أمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون القاضي شرف الدين بن القاضي شمس الدين(١٥٩) بالجلوس في دار العدل لقراءة القصص عليه، وحينما تأكد من بلاغته عهد له بكتابة السر في دمشق والتوقيع على القصص. (١٦٠)

وبينما تكون بلاغة البعض في كتابة وقراءة القصص السبيل لاعتلاء وظائف الدولة المهمة، يكون العجز عن امتلاك تلك المهارات اللغوية سببًا للإعراض عن قراءتها على السلطان، فقد لاحظ السلطان برسباي، أثناء قراءة كريم الدين عبد الكريم

(١٥٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٦، ص٢٠٣-٢٠٤

(١٥٥) شرف الدين عبد الوهاب بن تاج الدين محمد بن محمد بن عبد المنعم البارنباري، أبوه تاج الدين كاتب السر بطرابلس توفي سنة(٧٥٦هـ/١٣٥٥م)، وكان شرف الدين أحد كتاب الدرج، توفي سنة(٨٠٤هـ/ ١٤٠٢م). الصفدي، أعيان العصر، ج٥، ص١٧٠-١٧٢؛ المقريزي، السلوك، ج٦، ص٨٠.

(١٥٦) الصفدي، أعيان العصر، ج٥، ص١٧٢.

(١٥٧) شرف الدين عبد الوهاب بن أحمد بن يحيى بن فضل الله العدوي، كتب في ديوان الإنشاء مع والده بمصر، ثم دمشق، وتوفي سنة(٧٥٤هـ/١٣٥٣م). الصفدي، أعيان العصر، ج٣، ص٢٠٦-٢٠٧؛ ابن حجر، الدرر، ج٣، ص٢٣١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٩٥.

(١٥٨) الصفدي، أعيان العصر، ج٣، ص٢٠٦.

(١٥٩) شرف الدين أبو بكر بن محمد بن محمد بن محمود بن سلمان بن فهد، ولد سنة(٦٩٣هـ/١٢٩٤م)، برع في فنون الكتابة، والشعر، وولي كتابة السر في دمشق في عصر الناصر محمد بن قلاوون، ثم كتابة السر بمصر، ثم رجع دمشق، وتولى توقيع الدست ووكالة بيت المال، وتوفي سنة(٧٤٤هـ/١٣٤٣م). الصفدي، أعيان العصر، ج١، ص١٢-١٤؛ الوافي، ج١٠، ص٢٥٩؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١، ص٥٥٤-٥٥٦.

(١٦٠) الصفدي، أعيان العصر، ج١، ص١٣؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١، ص٥٥٥.

ابن كاتب المناخ[١٦١] القصص والكتب الواردة من مختلف جهات الدولة [١٦٢] اللحن الظاهر الفاحش، ووقوفه على بعض الكلمات والجمل التي يجتهد ويحاول قراءتها، لذا عهد السلطان للقاضي شرف الدين الأشقر[١٦٣]نائب كاتب السر بقراءة القصص والكتب الواردة عليه. [١٦٤] كذلك كشفت قراءة ابن السفاح[١٦٥] للقصص، العامية الدارجة التي تبعد كثيرًا عن الفصحى، رغم ولايته كتابة السر وما تتطلبه هذه الوظيفة من المهارة اللغوية والأدبية. [١٦٦]

ولم يكن مجرد قراءة القصص وتفسير ما بها شيء يسير على كُتاب سر الدولة المملوكية، فقد ارتبطت بهذه الوظيفة معرفة بكثير من فروع العلم المختلفة كالفقه، والنحو، والنَّظم، والنثر، والترسل، والمكاتبات، والتاريخ، وعادات وتقاليد المجتمع، وكذلك كثير من المصطلحات واللكنات المختلفة التي يتحدث بها المصريين آنذاك، لذا تكشف هذه الوظيفة قدر متوليها إن لم يكن له باع في هذه الفروع، فقد تبين ذلك من خلال قراءة كاتب السر علم الدين بن الكويز[١٦٧]القصص على الأمير الكبير ططر[١٦٨]، فقرأ ابن جَمَّاز "ابن الحمار"، فرد عليه نقيب الجيش مكررًا "ابن جَمَّاز ابن جَمَّاز"، فضج الناس بالضحك، فعزم ططر على عزله بسبب ذلك. [١٦٩] وكان لعدم دراية كاتب السر شمس الدين محمد الهروي[١٧٠]باللكنة المصرية للغة العربية،

(١٦١) الصاحب كريم الدين عبد الكريم بن عبد الرازق بن عبد الله بن عبد الوهاب بن الصاحب تاج الدين الشهير بابن كاتب المناخ، ولد بالقاهرة، وُلي نظر ديوان المفرد، ثم الوزارة، وأضيف إليه الأستادارية ثم أعفى منها واستقل بالوزارة حتى عهد إليه السلطان برسباي بكتابة السر بمصر سنة(٨٣٦هـ/ ١٤٣٣م)، ثم عزل وسجن وأفرج عنه، ثم استقر ملك للأمراء بالوجه القبلي، ثم نظر بندر جده، ثم تولي الوزارة مرة ثانية حتى أعفي منها سنة(٨٥١هـ/ ١٤٤٧م) بسبب شدة مرضة الذي توفي بسببه سنة(ربيع الآخر ٨٥٢هـ/ يونيو ١٤٤٨م). ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٧، ٣٤٠-٣٤٤؛ الدليل الشافي، ج١، ص٤٢٥؛ النجوم الزاهرة، ج١٥، ٥٢٧؛ حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تح: محمد كمال عز الدين، ط١، عالم الكتب، ١٩٩٠م، ج١، ص١٦٩؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٤، ص٢١٣-٢١٤؛ حسن أحمد عبد الجليل بطاوي، أهل العمامة في مصر: عصر سلاطين المماليك، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠٧م، ص١٨.

(١٦٢) المقريزي، السلوك، ج٧، ٢٣٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٤، ص٣٦١.

(١٦٣) شرف الدين أبى بكر بن سليمان سبط ابن العجمى المعروف بالأشقر، أحد موقّعى الدّست ثم نائب كاتب السر في عصر السلطان برسباي، توفي سنة(٨٤٤هـ/١٤٤١م). المقريزي، السلوك، ج٧، ص٤٨١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٤، ص٣٢٦.

(١٦٤) ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج١٤، ص٣٦١

(١٦٥) شهاب الدين أحمد بن صالح بن أحمد بن عمر، المعروف بابن السفاح، ولي كتابة السر بحلب هو ووالده وأخوه، ثم ولي كتابة السر بمصر، وتوفي وهو عليها في (رمضان ٨٣٥هـ/ مايو١٤٣٢م). ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣، ص٤٨٢؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج١، ص٣٢٠-٣٢٢؛ الدليل الشافي، ج١، ص٥٠؛ النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٧٤؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج١، ص٣١٤؛ الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، ج٣، ص٤٨٢.

(١٦٦) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٤، ص٣٤٥-٣٤٦.

(١٦٧)علم الدين داود بن عبد الرحمن، المعروف بابن الكويز، ولد بالكرك، كان أبوه من كتاب الكرك النصارى، يقال له جرجس، أسلم وتسمى بعبد الرحمن، ولي نظر جيش طرابلس، ثم نظر جيش دمشق، ثم قبض عليه هو وأخيه صلاح الدين سنة(٨١٢هـ/١٤١٠م) وسجنا بالقاهرة، ثم افرج عنهما، فذهبا إلى دمشق، وسارا في خدمة المؤيد شيخ حتى تسلطن فولي داود نظر الجيش، ثم كتابة السر للأمير ططر، وتوفي بالقاهرة في(شوال٨٢٦هـ/ سبتمبر١٤٢٣م).ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٥، ٢٨٩-٢٩٢؛ الدليل الشافي، ج١، ص٢٩٥؛ النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١١٨؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣، ص٣١٣-٣١٤؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٢، ص٨٨.

(١٦٨) الملك الظاهر أبو الفتح ططر بن عبد الله الظاهري، من مماليك الظاهر برقوق، ولي أمير مائه ومقدم ألف بمصر، ثم نائب غيبة سنة(٨١٨هـ/١٤١٥م)، ثم رأس نوبة سنة(٨٢٠هـ/١٤١٧)، ثم أمير مجلس، تولى الوصاية على الملك المظفر أبو السعادات بن المؤيد شيخ، ثم تزوج من أمه، وأنقلب عليه وولي السلطنة مدة سبعة أشهر، وتوفي في(٤ ذي الحجة٨٢٤هـ/٢٩نوفمبر ١٤٢١م). ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٦، ص٣٩٧-٤٠٥؛ الدليل الشافي، ج١، ٣٦٣؛ النجوم الزاهرة، ج١٤، ١٩٨-٢١١؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣، ٢٥٧-٢٥٨؛ الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، ج٢، ص٥٠٩-٥١٣؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٤، ص٧-٨.

(١٦٩) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٤، ص١٧٤-١٧٥.

(١٧٠) شمس الدين محمد بن عطاء الله بن محمد بن أحمد بن فضل الله الهروي، ولد بهراة "بأفغانستان" سنة(٧٦٧هـ/ ١٣٦٦م)، برع في الفقه، والحديث، والأدب، والتاريخ، قدم إلى القاهرة، وولي بها قاضيًا لقضاة الشافعية ثم عزل في(٨٢٢هـ/١٤١٩م)، وسار إلى القدس ثم رجع إلى القاهرة

أن عهد السلطان برسباي لبدر الدين محمد بن مزهر[١٧١]نائب كاتب السر في(جمادى الآخر٨٢٧هـ/مايو١٤٢٤م) لقراءة القصص عليه. [١٧٢]

٣.٥.٤ مكان وكيفية عرض القصص

يعتبر المقر الأساسي للنظر في القصص التي ترفع للسلطان، دار العدل التي يجلس بها السلطان يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع عدا شهر رمضان، ويتبع جلوس السلطان وعرض القصص عليه تنظيمًا إداريًا حيث يبدأ السلطان بجلوسه على كرسيه، ثم يجلس عن يمنيه قضاة القضاة من المذاهب الأربعة يتقدمهم قاضي المذهب الشافعي، وإلى جانبه الحنفي، ثم المالكي، ثم الحنبلي، وإلى جانبه وكيل بيت المال، ثم ناظر الحسبة بالقاهرة، ويجلس على يسار السلطان كاتب السر، ويقف الوزير –إن كان من أرباب السيوف–، ونائب السلطنة مع أصحاب الوظائف الأخرى، ويقف من وراء السلطان صفان عن يمينه ويساره من السلاحدارية، والجمدارية، والخاصكية، كذلك يجلس على بعد عدة أمتار على يمين السلطان ويساره ذوو السن والقدر من كبار أمراء المئين وهم أمراء المشورة، ويليهم أكابر الأمراء وأصحاب الوظائف وهم وقوف ويقف ورائهم أيضًا بقية الأمراء، ويقف خلف هذه الحلقة المحيطة بالسلطان الحُجاب والدوادارية، ويتم البت في أمر القصص أولًا بقراءتها –من قِبل كاتب السر وموقعو الدست– على السلطان، وإن كان الأمر يتعلق بالأمور الدينية والشرعية يتم عرض الأمر على القضاة، وإن تعلق الأمر بالشؤون العسكرية يتم عرض الأمر على الحاجب وكاتب الجيش، وما سوى ذلك ينظر فيه السلطان بما يراه مناسبًا، وهذه الصورة الرسمية التي صورها لنا المؤرخ المقريزي عن عرض القصص في الدولة المملوكية، لكنه أضاف أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون كان يجلس يوم الاثنين والخميس كما تقدم لكنه في يوم الخميس يجلس منفردًا لسماع القصص، ولا يستدعي للحضور أي من مسؤولي الدولة السابقين إلا إذا استدعى الأمر ذلك، وقد تغير هذا الترتيب بعد سلطنة الناصر محمد بن قلاوون فجلس قاضي القضاة الشافعي عن يمين السلطان ويليه القاضي المالكي ثم قاضي العسكر ثم محتسب القاهرة، ثم مفتي دار العدل الشافعي، ويجلس القاضي الحنفي على يسار السلطان ويليه الحنبلي. [١٧٣]وقد حرص بنو قلاوون على اتباع هذا التقليد حتى نهاية حكمهم، لكن اعتبر الجلوس بدار العدل والاستماع للقصص منذ عصر السلطان الظاهر برقوق –الذي كان يجلس وقتًا قصيرًا يُقرأ عليه بعض القصص –من رسوم الدولة فقط، كما تم تغيير موضع عرض القصص في عصره من دار العدل إلى الاصطبل السلطاني،[١٧٤]الذي استخدمه أيضًا كثير من السلاطين والأمراء للنظر في

وولي كتابة السر ثم عزل عنها في(٨٢٧هـ/١٤٢٤م)، ثم ولي قاضيًا للقضاة الشافعية ثم عزل وتوجه للقدس وتوفي بها سنة(٨٢٩هـ/١٤٢٦م). ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٣٦؛ المنهل الصافي، ج١٠، ص١٩١–١٩٣؛ الدليل الشافي، ج٢، ص٦٥٤؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٨، ص١٥١؛ الصيرفي، نزهة النفوس، ج٣، ص١٠٩–١١١؛ عودة رافع الشرعة، المجتمع الشامي في العصر المملوكي، ٢٠١٩م، ص١٣٧–١٣٨.

(١٧١) محمد بن أبي بكر بن محمد بن محمد بن مزهر الأنصاري، ولي نظر الخاص، ثم الحسبة، ثم كتابة السر التي ورثها عن والده، توفي سنة(٩١٦هـ/١٥١١م). السيوطي، نظم العقيان، ص١٤٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ١٥–١٦؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج١٠، ص١٠٦؛ نجلاء مصطفى شيحة، وكيل بيت المال لسلطنة المماليك(٦٤٨–٩٢٣هـ/١٢٥٠–١٥١٧م)، حولية كلية الآداب، جامعة بني سويف، مج ٣، ٢٠١٤م، ص٢٩٧.

(١٧٢) المقريزي، السلوك، ج٧، ٩٨–٩٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٤، ص٢٦٥.

(١٧٣) المقريزي، الخطط ، ج٣، ص٣٦٤–٣٦٥؛ البيومي إسماعيل الشربيني، النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك، الهيئة العامة للمصرية للكتاب، ١٩٨٨م، ص١٣٥.

(١٧٤) المصدر السابق ، ج٣، ص٣٦١؛ عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي لدولة السلاطين المماليك في مصر دراسة تحليلية للازدهار والانهيار، مكتبة الأنجلو مصرية، ١٩٨٨م، ص٢٧٤.

القصص[١٧٥] كما اختصت أيضًا دار النيابة [١٧٦]بعرض القصص على السلطان فيشير المقريزي أنه بعد الانتهاء من العرض العسكري الذي اعتاد عليه السلاطين المماليك يومي الاثنين والخميس، يتجه السلطان والأمراء إلى دار النيابة، وقد أعدت مائدة بمختلف الأطعمة، ثم يجلس السلطان وأمامه الحجاب وقوفًا، كما يحضر أصحاب الوظائف المختلفة في الدولة، ويتم قراءة القصص على نائب السلطنة بعد أن يعهد إليه السلطان بذلك، فإن كانت الصلاحيات المخولة إليه تكفي بالتوقيع عليها برسمه كان ذلك، وإن لم يكن في نطاق صلاحيته وقّع عن السلطان وينبه فيها أنه بإشارة النائب، وإن كان الأمر يقتضي، عرض الأمر على السلطان في وقت الاجتماع به، أو يرسل من يخبره ويأخذ رأيه فيه. [١٧٧]

وإلى جانب طريقة عرض القصص –على السلطان– التي أشار إليها المقريزي، نرى القلقشندي يرصد لنا ستة أنواع من القصص تُعرض على السلاطين وكبار رجال الدولة وهي كالتالي: النوع الأول ما يُرفع إلى السلطان في آحاد الأيّام، وفيه بعد أن يتم قراءة القصص على السلطان، يوقع عليها، ثم ترفع إلى كاتب السر، فيحيلها إلى بعض كتاب الإنشاء، فيكتب أمر السلطان ويحفظها عنده كمستند رسمي يثبت ما تم تنفيذه، والنوع الثاني: ما يُرفع لصاحب ديوان الإنشاء، فإن كان صاحب القصة من كبار رجال الدولة من الأمراء أو أرباب القلم، أرسل قصته لديوان الإنشاء، فينظر فيها صاحب ديوان الإنشاء، فإن استدعى الأمر مخاطبة السلطان أخذها وقرأها بين يديه، فيمتثل ما أمر به السلطان فيها، ثم يرفعها إلى أحد كتاب الإنشاء فيكتب أمر السلطان، ويحتفظ أيضًا بالقصة، أما إذا كان رافع القصة من العامة، فتدفع إلى أحد مدراء ديوان الإنشاء فيجعل عليها علامة له، ثم يجمع كلّ مدير ما معه من القصص، وترفع إلى صاحب ديوان الإنشاء، الذي يتولى فحصها فإن كان بعضها جائزًا للكتابة كتب عليه وعيّنه، أما إذا كان غير جائز قطعه أو ردّه، ثم يعين الجائز منها إلى أحد كتاب الإنشاء الذي يكتب بمقتضاها، ويحفظ القصة عنده شاهدًا. والنوع الثالث، وهو ما يرفع من القصص بدار العدل عند جلوس السلطان للحكم في المواكب، فيعرضها كاتب السر وغيره من كُتاب الدّست، فيقرأها كاتب السر على السلطان ثم كُتاب الدّست الواحد تل والآخر، وفي أثناء عرض القصص يشير السلطان برأسه بإمضاء ما شاء منها، فيسجل كاتب السرّ أو كاتب الدّست أمر السلطان على تلك القصة، ثم ترفع إلى ديوان الإنشاء فيكتب أمر السلطان، وتحفظ أيضًا في الديوان، أما النوع الرابع ما يرفع منها لنائب السلطنة، الذي يجلس بين يديه كاتب من كتاب الدست يقوم بالنظر في القصة والعمل على إيضاحها وإكمال ما بها من نقص حتى يتضح معناها إن كانت غير واضحة، ثم يدفع إلى النائب الذي يدون أمره على حاشية القصة من الأسفل إلى الأعلى بقلم مختصر الطومار، ثم ترفع إلى كاتب السر الذي يدفعها إلى أحد كتاب الإنشاء فيكتبها، ويحتفظ أيضا بالقصة. أما النوع الخامس، وهو ما يُرفع إلى أتابك العسكر، فإن كانت القصة واضحة كرد الحقوق إلى أصحابها، كتب كاتب الدست ما تقتضيه تلك الحالة دون رجوع إلى الأتابك، وأما إذا كان الأمر غير واضح، وفيه نزاع بين الخصوم، فيقرأها كاتب الدست على الأتابك الذي بدوره يكتب ما يقتضيه الموقف ثم يكتب اسمه مُرقمًا أشهر حرف من حروفه كما كان يكتب برقوق (ق) إيتمش(ش)، والنوع السادس، وهو ما يرفع منها للدّوادار لتعلّق عنه الرسالة عن السلطان به، ففي بداية السلطنة كان الأمر المتبع أن السلطان إذا أمر بكتابة شيء على يد أحد الدّواداريّة حملها بريدي إلى كاتب السرّ الذي يكتب على القصة اثبات حضور البريدي وما جاء به، ثم يرفعها إلى أحد كتاب الإنشاء، لكن منذ بداية عصر

(١٧٥) المقريزي، السلوك، ج٦، ص٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٧؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢، ص٥١٥؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٣، ص٢٠٥، ٢٠٦؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص١٠٢.

(١٧٦) دار النيابة، بناها المنصور قلاوون بقلع الجبل سنة(٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م)، وأول من سكنها الأمير حسام الدين طرنطاي، ثم نواب السلطنة من بعده حتى هدمها الناصر محمد بن قلاوون سنة(٧٣٧هـ/١٣٣٧م) وأبطل النيابة والوزارة، فصار موضعها ساحة في القلعة، ثم أعاد الأمير قوصون إنشاءها عند استقراره في نيابة السلطنة. المقريزي، الخطط، ج٣، ص٣٧٤.

(١٧٧) المصدر السابق، ص٣٧٤–٣٧٥؛ خالد محمد الحريري، قاضي القضاة ودوره في دولة المماليك البحرية(٦٥٨–٧٨٤هـ/١٢٦٠–١٣٨٢م)،أطروحة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق، ٢٠١١م، ص١١٠؛ محمد محمد مرسى، نظر المظالم، ص١٧٩.

السلطان الناصر محمد بن قلاوون نرى أن صاحب ديوان الإنشاء يعهد إلى كاتب من كتاب الديوان فيكتب ما كان كاتب السرّ يكتبه من ذلك على القصص ثم ترفع إلى كاتب السرّ فيكتب عليها بالأمر بكتابتها؛ ويرفعها إلى من يكتب بمقتضاها، ثم تحفظ عنده كسند رسمي يثبت ذلك. (١٧٨)

ورغم تلك التراتبية الإدارية التي فرضتها السلطة المملوكية، لكننا نري بعضًا من القصص ترفع مباشرة إلى السلاطين وكبار الأمراء دون اتباع التقاليد السابق عرضها، فمن ذلك: أن رفعت امرأة قصة للسلطان برسباي مباشرة – الذي أصدر أمرًا في (ربيع الآخر ٨٧٦هـ /أكتوبر ١٤٧١م) بعدم رفع أي من القصص إليه مباشرة إلا بعد أن تُعرض على أمرائه ووزرائه – تشكو فيها زوجها لغيرتها عليه لوطئه جارية له في ملكه. (١٧٩) كما شدد الأمير الحاج آل ملك من رفع القصص عليه مباشرة دون عرضها على الولاة والتأكد من وجود حق شرعي لصاحبها يوجب تنفيذه، حينئذ ترفع إليه القصة وينظر فيها، ورغم ذلك نجد كثير من العامة لا تعبأ بهذا التنظيم وترفع إليه القصص مباشرة، لكنه يردها إلي الولاة ثانية.(١٨٠)

٤.٥.٤ مسؤولية النظر في القصص

نظرًا لتلك الترتيبات التنظيمية الكتابية المعقدة، فقد تم تحديد النظر في القصص باعتبارها مهمة محددة، منذ فترة مبكرة من تاريخ المسلمين. فهي مهمة يقوم بها مَنْ يتم تعيينه لذلك، وقد اعتُبرت وظيفة ذات اختصاص محدد، تُسند إلى مَنْ يمتلك مؤهلات القيام بها؛ لأنها ذات أهمية خاصة في سياق بُعدها السياسيّ وفي إدارة الشأن العام في حياة الناس؛ فالقائم عليها يمثل حلقة وصل بين الحاكم والمحكوم، ويؤثر سلوكه على صياغة طبيعة العلاقة التي تقوم بين الطرفين من استقرار وقبول أو اضطراب ورفض؛ لذلك نجد في العديد مِن سير الشخصيات المشهود لها بالمكانة العلمية والأخلاقية تُسند لهم تلك المهمة، ومن ذلك ما نجده في ترجمة القاضي محيى الدين بن فضل الله(١٨١) الذي منح له السلطان الناصر محمد بن قلاوون كثير من الصلاحيات في قراءة القصص والمظالم والرواتب والعزل ويوقع على ما يراه مناسبًا تقديرًا لمكانته، ثم ترسل إلى السلطان لتُعتمد. (١٨٢) وكذلك أبو العباس أحمد بن موسى الزرعي(١٨٣) الذي تولى القضاء والنظر في القصص،(١٨٤) والقاضي أحمد بن الشهاب(١٨٥) الذي وكله العلم البلقيني للاطلاع على القصص والبت في أمرها نيابة عنه، (١٨٦) والقاضي علاء الدين بن

(١٧٨) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٦، ص ٢٠٦-٢٠٩.

(١٧٩) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص٦٣.

(١٨٠) المقريزي، السلوك، ج٣، ص٣٩٦؛ محمد محمد مرسى، نظر المظالم، ص١٨٠

(١٨١) يحيى بن فضل الله بن المَجلّي بن دعجان، ولد بالكرك سنة(٦٤٥هـ/١٢٤٧م) ولي كتابة السر بالشام ثم مصر، ثم استقر بدمشق قُبيل وفاته سنة(٧٣٨هـ/١٣٣٧م). الصفدي، أعيان العصر، ج٥، ص٥٧١-٥٧٥؛ ابن حجر، الدرر، ج٥، ص١٩٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٣١٦؛ الدليل الشافي، ج٢، ص٧٧٩.

(١٨٢) الصفدي، أعيان العصر، ج٥، ص٥٧٦.

(١٨٣) أبو العباس أحمد بن موسى الزرعي الحنبلي، من مدينة حبراص بعجلون، وهو أحد الفقهاء الأجلاء الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، اتسمت شخصيته بالجرأة والقوة في الحق، قدم إلى القاهرة في عصر الناصر محمد بن قلاوون، لرفع كثير من مطالب الرعية فأجيب لطلبه ثم عاد لبلده، وتوفي بها سنة (٧٦٢هـ/١٣٦٠م). المقريزي، السلوك، ج٤، ص٢٥٨-٢٥٩؛ ابن تغري بردي، الدليل الشافي، ج١، ص٩١؛ المنهل الصافي، ج٢، ص٢٣١-٢٣٢؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١، ص٣٤٤؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٦، ١٩٧.

(١٨٤) ابن حجر، رفع الإصر، ص٣٤٦.

(١٨٥) أحمد بن أبي بكر بن محمد بن الشهاب الدمشقي، ولد سنة(٨١٧هـ/١٤١٤م)، تفقه على يد كثير من علماء مصر والشام والمدينة، ناب في القضاء بمصر، وتوفي سنة(٨٩٤هـ/١٤٨٩م). السخاوي، الضوء اللامع، ج١، ص٢٥٩.

(١٨٦) السخاوي، الضوء اللامع، ج١، ص٢٥٩.

الأثير[١٨٧]، والقاضي ابن جماعة[١٨٨]، والقاضي تاج الدين بن بنت الأعز[١٨٩] وغيرهم من القضاة الذين أضيف لصلاحيتهم النظر في القصص المرفوعة إليهم، فكما يبدو مما ينطق به محتوى كثير من كتب التراجم، الراصدة للواقع التاريخي، فقد جُمع بين تولي القضاء والنظر في القصص (المطالب، والشكاوى، والمظالم) للشخصيات التي يرى الحاكم أنها تحمل من مؤهلات تحقيق العدل ما يجعلها أهلاً للقيام بذلك العبء؛ ولعل الربط بين القضاء والقصص يوضح تلك العلاقة الوطيدة بين تحقيق العدل، المتمثل في القضاء، والنظر في المظالم ورد الحقوق، المتمثل في القصص. كما أن كلاً منهما يحتاج إلى الوقوف على واقع الحال، سواء بالعلم بما تستوجبه الشريعة من أحكام، أو الإحاطة بما يستبطنه الواقع من حقائق ومتغيرات. ومن خلال تلك الأهمية التي كانت تحتلها القصص في الشأن السياسي للدولة الإسلامية، فلم يعد أمر إدارة شؤون الحكم مقصوراً على الدواوين بل تعداه إلى القصص، التي تتحرك بشكل فردي مباشر بين المرسِل والمرسَل إليه، ولما كانت هذه الوسائط من الأهمية جعلت كثير من السلاطين المماليك يتولوا النظر فيها بل أصبحت سمة من سمات السلطة، فرغم أسمية الخلافة العباسية في مصر المملوكية، لكن الخليفة المستكفي(٧٠٢-٧٤٠هـ/١٣٠٣-١٣٤٠م)-المعروف بموقفه المعارض لسلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثالثة سنة(٧٠٩هـ/١٣٠٩م)، والمؤيد للسلطان المظفر بيبرس- حاول أن تتحول هذه السلطة الإسمية إلى سلطة فعلية، وضحتها تلك القصة التي رُفعت إليه سنة(٧٣٨هـ/١٣٣٨م) من أحد العامة يختصم فيها السلطان الناصر محمد بن قلاوون، فكان جواب الخليفة عليها "ليحضر أو يوكل"، فلما قرأها الناصر شق ذلك عليه، وأسرّها في نفسه وتغافل عن فعلة الخليفة[١٩٠]، حتى دبر له مكيدة تكون سببًا في إبعاده عن مركز الحكم والإدارة في القاهرة، وقد أخذ بنصيحة قاضي القضاة جلال الدين القزويني الذي اقترح عليه استدعاء الخليفة ومواجهته بما قام به في أمر التوقيع على القصة، حينئذ سوف يتم استثارة غضبه ويتلفظ بحديث تكون عاقبته عليه سوء، وبالفعل حدث ما توقعه القاضي، وعلى أثر ذلك تم نفيه إلى قوص والتقليل من راتبه الشهري الذي وصل من خمسة آلاف درهم إلى ألف درهم،[١٩١]واستقر في منفاه حتى وفاته سنة (٧٤١هـ/١٣٤٠م).[١٩٢]

ورغم ضعف بعض السلاطين واضطراب الدولة في عصرهم، تمسك كثير منهم بالنظر في القصص والفصل فيها، فقد شهدت دار العدل على جلوس السلطان المؤيد شيخ المحمودي في (١٣جمادى الأولى سنة٨١٥هـ/٢٠أغسطس١٤١٢م)، وأخذ كاتب السر يقرأ عليه القصص. [١٩٣]واستمر ذلك التقليد المتبع للنظر في القصص يولد شعورًا سلطويًا خاصة بعد وفاة السلطان المحمودي وولاية ابنه المظفر أحمد الذي كان لا يزال طفلًا، مما أصاب السلطنة بالاضطراب حتى وقع اختيار كثير من الأمراء على الأمير ططر، بأن يكون المربي والوصي على السلطان المظفر، وقد جاء هذا الإجماع أثناء جلوس الأمير ططر على ميمنة السلطان وأخذ ناظر الجيش في قراءة القصص المرفوعة للبت فيها، فلما لم يجيب أحد من الأمراء، عرض

(١٨٧) الصفدي، أعيان العصر، ج٣، ص٧٢١-٧٢٢؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤، ص٢٤٥؛ علاء الدين على بن أحمد بن سعيد بن الأثير الحلبي الأصل المصري النشأة، عُرف بذكائه، ولاه الناصر محمد بن قلاوون كتابة السر بمصر سنة(٧١١هـ/١٣١١م) حتى مرضه الذي أعجزه عن أداء مهامه وأدى لوفاته سنة(٧٣٠هـ/١٣٣٠م). الصفدي، ج٣، ص٢٦٤-٢٦٦؛ ابن حجر، الدرر، ج٤، ص١٥-١٧.

(١٨٨) ابن حجر، إنباء الغمر، ج١، ص٢٦٥؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٨، ص٤٨٨.

(١٨٩) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣١٢.

(١٩٠) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٤٧٤.

(١٩١) المقريزي، السلوك، ج٣، ص٢١٧-٢١٨.

(١٩٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٤٧٤.

(١٩٣) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢، ص٥١٥.

الأمير ططر على الأمير تنبَك ميق[١٩٤] أن يتكلم وينظر في أمر القصص بل ويدبر أمر السلطنة لأنه الأكبر سنًا والأعلى قدرًا، ووعده بأنه هو وكثير من الأمراء يكونوا في كنف طاعته، لكن رفض الأمير تنبَك، وأشار إلى الأمير ططر أن يكون هو القائم بأمر السلطنة ويكون هو تحت طاعته فوافق الأمراء على هذا الرأي، لكن امتنع ططر في البداية ثم قبل أخيرًا بعد إلحاح شديد من كبار الأمراء، فصار مدبر السلطنة، ووجد ناظر الجيش من يجيبه على تلك القصص المرفوعة في المجلس.[١٩٥]

ورغم شدة مرض بعض السلاطين وإشاعة خبر وفاتهم بين العامة، وجدت مهمة النظر في القصص أمرًا غير مباشر يثبت وجود السلطان على قيد الحياة، فهذا السلطان الظاهر جقمق اشتد عليه المرض لدرجة أنه أغشي عليه بعد صلاة الجمعة(٢٠ذي الحجة٨٥٦هـ/٣١ ديسمبر ١٤٥٢م)، وأشيع خبر وفاته وضجت القاهرة لذلك الخبر، لكن نراه في اليوم التالي يوقع على كثير من القصص المرفوعة إليه في حضور جمع كبير من الأمراء والخاصكية. [١٩٦] نرى أيضًا حرص السلطان جقمق على مباشرة شؤون الرعية والنظر في القصص والمناشير التي تعرض عليه للفصل فيها، رغم مرضه الشديد في(المحرم٨٥٧هـ/١٤٥٣م). [١٩٧]

ونظرًا لأن بعض القصص التي ترفع إلى السلاطين قد تحتاج إلى آراء سديدة من جانب القضاة، فقد أشركهم السلاطين للفصل فيها ضمانًا للصواب، ومن ذلك فقد رفع بنات الملك الناصر قصة للسلطان الظاهر بيبرس بدار العدل في(١٢ذي الحجة ٦٦٣هـ/٢٥أغسطس ١٢٦٥م) فيها أنهم اشتروا دار قاضي القضاة بدر الدين السنجاري[١٩٨] في حياته، وعند وفاته ذكر ورثته أن هذه الدار وقف، وهنا استعان السلطان بالقاضي تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز الذي أفتى بأنه إذا ثبت أن هذه الدار وقف يُعاد ثمنها من الورثة، وإذ لم يكن لديهم من ثمنها شيء يتم ارجاع الدار إلى الوقف ولا يستعاد ثمنها. [١٩٩]

ولم يتخلف الأمراء عن ركب القضاة والسلاطين في النظر في شؤون القصص[٢٠٠]، كنوع من إظهار قوتهم التنفيذية كذراع للسلاطين المماليك الذين أوكلوا لهم هذا الأمر، فقد فوّض السلطان الأشرف شعبان(٧٦٤-٧٧٨هـ/١٣٦٣-١٣٧٧م) في(٣ذي

(١٩٤) سيف الدين تنبك بن عبد الله العلائي، المعروف بميق، من كبار المماليك الظاهرية في عصر السلطان برقوق وابنه فرج، ولي أمير مائة ومقدم ألف ثم رأس نوبة ثم أمير آخور ثم ولي نيابة دمشق حتى سنة (٨٢٢هـ/١٤١٩م) ثم تم استدعاؤه للقاهرة وصارت له نفوذ كبيرة حتى بعد وفاة المؤيد شيخ وسلطنة ابنه المظفر أحمد، فولي نيابة دمشق ومات وهو عليها في (شعبان٨٢٦هـ/يوليو١٤٢٣م). ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣، ص٣١٢؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٤، ص١٣-١٦، الدليل الشافي، ج١، ص٢١٤؛ النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١١٧؛ الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، ج٣، ص٣٧.

(١٩٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٤، ص١٦٨-١٦٩.

(١٩٦) المصدر السابق، ج١٥، ص٤٤٨.

(١٩٧) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص٤٥٢.

(١٩٨) يوسف بن الحسن بن على بن عبد الله الكردي السنجاري، ولد في جبال أربيل سنة (٥٧٨هـ /١١٨٢م)، انتقل إلى سنجار "شمال العراق" منذ صباه لذا تلقب بالسنجاري، ولي قضاء البقاع، وبعلبك، وسنجار، ثم قضاء القاهرة والوجه البحري، ثم وزيرًا سنة (٦٥٥هـ/١٢٥٧م)، ثم عزل وعاد لقضاء الديار المصرية ثم عزل وسجن في عصر الظاهر بيبرس، وتوفي في(٦٦٣هـ/١٢٧٤م). الصفدي، الوافي، ج٢٩، ص٨٠-٨١؛ ابن واصل(محمَّد بن سالم بن نصرالله بن سالم)، (ت٦٩٧هـ/١٢٩٨م)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج٥، تح: حسنين محمد ربيع، تقديم سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٩٥٧م، ص١٨٧، ٢٣٣؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٣٣٢؛ المقريزي، السلوك، ج١، ص٥٢٨.

(١٩٩)الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٠، ص١١١؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٢٧؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٧، ص٣٨١.

(٢٠٠) علي أحمد، القضاء في عصر المماليك، ص٢٧١.

الحجة ٧٧٥هـ /١٥مايو ١٣٧٤م)الأمير مَنْجَك[٢٠١] للنظر في القصص وخاصة التي رفعت من ديوان الجيش والحكم فيها حتى استبد بكثير من الأمور.[٢٠٢]وهو ما أغضب السلطان حسن سابقًا حيث كانت تُقرأ القصص على الأمير منجك في مجلس السلطان، وقد عبر عن استيائه في حضور القضاة بقوله: "لست أنا أهلًا للسلطان" فاندهش الحاضرون، وسألوه عن سبب ذلك فأجاب: إن كان أمر السلطنة بيدي "فأمسكوا إلي هذا" وبالفعل تم القبض على الأمير منجك سنة(٧٥١هـ/١٣٥٠م) بسبب تلك القصص.[٢٠٣]ورغم ذلك نري السلطان حسن يوكل الأمير شيخو للنظر في القصص التي ترفع في مجلسه عن رضا نفسه.[٢٠٤]

ولما كان أمر التفويض قد ظهر في المواقف السابقة لأسباب مختلفة يأتي على رأسها كثرة مهام السلاطين المماليك، لكن توضح بعض المواقف الأخرى ضعف شخصية بعض السلاطين وعدم سيطرتهم على شؤون الدولة، كانت سببًا رئيسيًا لسحب كثير من صلاحيات الحكم والإدارة منهم، ويبرهن على ذلك أن السلطان الملك الظاهر بلباي(٨٧٢هـ/١٤٦٧م) حينما كانت تُرفع إليه كثير من القصص، لا ينظر إليها بل يأمر بإحالتها إلى الأمير خير بك[٢٠٥] فله القدرة على البت فيها وتنفيذ ما عهد به. [٢٠٦]

نرى هنا أن الإحالة من السلطان إلى الأمير أمرًا تستوجبه التراتبية الإدارية – وإن كانت صورية– في تلك الفترة، لكن أثبت الصلاحيات التي منحها السلطان الأشرف خليل للوزير شمس الدين بن السلعوس[٢٠٧]، انعدام القدرة على إدارة الدولة فكان الوزير يتصرف في شؤون الدولة كيفما شاء، لدرجة أن القصص كانت تقرأ عليه مباشرة، ويبت فيها دون مشورة السلطان. [٢٠٨]

---

(٢٠١) سيف الدين مَنْجَك بن عبد الله اليوسفي، من مماليك الناصر محمد بن قلاوون، هو الذي أحضر رأس الشهاب أحمد بن الناصر محمد(ت٧٤٣هـ/١٣٤٢م) إلى دمشق سنة(٧٤٥هـ/١٣٤٤م)، واستقر حاجبًا بها، وتولى الوزارة بمصر سنة(٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، ثم عزل وأعيد إليها، ثم قبض عليه وسجن بالإسكندرية سنة(٧٥٢هـ/١٣٥١م)ثم أفرج عنه سنة(٧٥٥هـ/١٣٥٤م)، فتوجه إلى صفد واستقر في نيابة طرابلس، وولى نيابة حلب سنة(٧٥٧هـ/١٣٥٦م)، ثم نيابة دمشق(٧٥٩هـ/١٣٥٨م)، وفي(شوال٧٧٥هـ/مارس ١٣٧٤م) استدعاه السلطان الأشرف شعبان إلى مصر وفوض إليه كثير من أمور الدولة، وتوفي بها في(٢٩ ذي الحجة ٧٧٦هـ/٣٠مايو١٣٧٥م). ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص١٣٣-١٣٤؛ المنهل الصافي، ج١١، ص٢٧٦-٢٨٠؛ الدليل الشافي، ج٢، ص٧٤٣؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٦، ص١٢٣-١٢٤؛ إنباء الغمر، ج١، ص١٠٠-١٠١؛ ابن شاهين، نيل الأمل، ج٢، ص٩٢؛ محمود محمد الجبارات، وقفية منجك باشا(٧٨٤هـ/١٣٨٢م) دراسة وتحقيق، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، ع٢، مج٣، ٢٠٠٩، ص٧٢-٧٦.

(٢٠٢) المقريزي، السلوك، ج٤، ص٣٦٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص١٣٢.

(٢٠٣) الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ص٥٨٤.

(٢٠٤) المصدر السابق، ص٥٣٢.

(٢٠٥) خير بك الظاهري خشقدم، من مماليك الأمير سودون قرقاش، اشتراه الظاهر خشقدم، وجعله من الخازندارية، ثم ولاه أمير عشرة، ثم دوادار، ولما تسلطن الظاهر يلباي صارت أمور السلطنة بيده، لكن تبدلت أحواله في عصر السلطان قايتباي الذي سجنه ثم أفرج عنه وصار إلى مكة ثم إلى بيت المقدس وتوفي بها في (ربيع الآخر سنة٨٧٩هـ/ سبتمبر١٤٧٤م). السخاوي، الضوء اللامع، ج٣، ص٢٠٨-٢٠٩.

(٢٠٦) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٦، ص٣٧٢.

(٢٠٧) الصاحب شمس الدين ابن السلعوس محمد بن عثمان بن أبي الرجاء، أصله من دمشق وكان تاجرًا بها ثم ذهب إلى مصر، وكان لجمال خطه سببًا في التقرب للأشرف خليل بن قلاوون في سلطنة والدة، فولاه ناظرًا لديوانه، وقد حظى بمكانه عظيمة لديه حتى كاد لا يصبر عن بعده ساعة، فلما علم السلطان المنصور قلاوون أمر بنفيه إلى مكة، واستقر بها حتى وفاة المنصور، ولما تسلطن الأشرف أمر برجوعه إلى مصر فصار صاحب الحل والعقد، وعهد له بالوزارة، وتوفي سنة(٦٩٣هـ/١٢٩٤م).الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٤، ص٦٤-٦٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٦٧؛ ابن طولون(شمس الدين محمد بن علي بن خمارويه)، (ت٩٥٣هـ/١٥٤٦م)، إنباء الأمراء بأنباء الوزراء، ط١، تح: مهنا حمد المهنا، دار البشائر الاسلامية، بيروت، ١٩٩٨م، ص٨٤.

(٢٠٨) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٦٧.

بينما نري في المواقف السابقة ما يبرهن على اهتمام كثير من الأمراء بالقصص والتوقيع عليها لإظهار القدرة السلطوية على ممارسات إدارة شؤون الدولة، بغض النظر عن رد الحقوق والحفاظ على مصالح الرعية، نرى بعض الأمراء يترفع عن ذلك ويكون هدفه الأسمى الحفاظ على تلك القصص لصون الحقوق، ويدعم ذلك زيارة الأمير سيف الدين قجاجق الدوادار[٢٠٩]الأمير جمال الدين الاستادار،[٢١٠] فاستقبله وسلم عليه وجلس على إحدى جانبيه المصابة بها عينه، ثم شرع جمال الدين في عمله، حيث كان ينظر في القصص المرفوعة إليه، وكل ما انتهى من قصة رماها بجانبه حتى ينتهي بسرعة ليتفرغ للجلوس مع قجاجق الذي لاحظ سيلان الحبر على القصص التي انتهي منها الأمير جمال الدين، فأخذ يرمل عليها – أي يلقي عليها الرمل كي تجف–، وقد لاحظ حاشية جمال الدين ذلك الأمر وأخبروه بما كان من الأمير قجاجق، فأهوى على يده ليقبلها، ومنحه هدية عظيمة، وقد علق ابن تغري بردي على أن هذه الوقعة كانت دناءة من قجاجق؛ لأن رتبته الوظيفية لا تسمح له حتى بالترميل على السلطان نفسه، وأن من كان يرمل أختام وكتابات وتوقيعات السلطان هو "رأس نوبة النوب" [٢١١] ، وليس شخصاً ذا حيثية مثل الداودار قجاجق. [٢١٢] لكن شغل قجاجق الشاغل هو الحفاظ على قصص الرعية وما بها من مطالب أو شكاوى وغيرها قد تتداخل كلمات التوقيع عليها مما يؤدي لضياع حقوقهم، وليس هناك وقتًا للنظر لحيثيته.

٥– نتائج الدراسة

- إن نظرة خارجية متعجلة، في مجمل مراحل التاريخ الإسلامي، تلقي في روع الناظر ظنّاً بأن استخدام المراسلات التدوينية كانت محدودة ومقتصرة على جوانب إدارة الأمور العامة في الشأن السياسي. أما النظرة البحثية المتفحصة، فقد أوصلتنا إلى حقيقة مفادها أن الواقع الحياتي للشؤون اليومية كان يعجّ بكثير من المبادلات التدوينية، التي ترتبط بكثير من تفاصيل تسيير الشأن الاجتماعي، وقد أطلعتنا تلك النظرة المتفحصة على كثير من جوانب التوظيف الاجتماعي للقصص. فقد اتسع أثر القصص وغيرها من الأنماط التدوينية بين مختلف طبقات المجتمع المصري معتمدة على ركيزتين: تمثلت الركيزة الأولى في أن اللغة تمثّل وسيلة تواصلية ذات أثر فعّال في توجيه سلوك الأفراد وصياغة أنماط التواصل بين أعضاء المجتمع. أما الركيزة الثانية، فقد تمثلت في أنه قد أضحى للكلمة المكتوبة سحر تأثيريّ على المجتمع.
- أن الواقع السياسي في الدولة الإسلامية قد شهد توظيفًا مكثفًا للمراسلات التدوينية، وقد وجدنا أن عدداً متنوعاً من الوظائف استطاعت أن تقوم بها تلك الوسائط، وخاصة القصص، التي قامت بدور واضح في تسيير الشأن العام أو في تسيير شؤون قصور الحكم، أو في تحقيق التواصل بين الحكام والمحكومين.

(٢٠٩) سيف الدين قُجاَجُق بن عبد الله الظاهري، من أصاغر خاصكية السلطان برقوق ومماليكه، تم ترقي حتى ولي الدوادارية، عرف بتواضعه، وجمال مظهره، كما اختص به السلطان الناصر محمد بن قلاوون وقربه إليه، توفي سنة(٨١٣هـ/١٤١٠م). المقريزي، السلوك، ج٦، ص٢٥٧، ٢٨٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٣، ص١٧٨؛ المنهل الصافي،ج٧، ص١٩؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٦، ص٢١١.

(٢١٠) جمال الدين يوسف بن أحمد بن محمد البيري الحلبي، ولد سنة(٧٥٢هـ/١٣٥١م)، قدم إلى مصر وتولى عدد من الوظائف لكثير من الأمراء، ثم ولي الأستادارية في عصر السلطان فرج بن برقوق، وأضيف إليه الوزارة ونظر الخاص وكشف الوجه البحري، واستبد بالأمر حتى صار المسيطر على السلطنة لذا مكر به السلطان فرج وقتله سنة(٨١٢هـ/١٤٠٩م). ابن حجر، إنباء الغمر، ج٦، ص١٩٨–٢٠٢؛ ذيل الدرر الكامنة، تح: عدنان درويش، القاهرة، ١٩٩٢م، ص٢٠٥؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٣، ص١٧٥.

(٢١١)رأس نوبة النوب، من الوظائف التي يشغلها عسكريون، وتقع مهمة صاحبها الحكم على المماليك السلطانية والأخذ على أيديهم، ويتحدث عن مماليك السلطان أو الأمير، وينفذ أمره فيهم. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص٤٥٥؛ محاسن وقاد، مصر في العصر المملوكي، ص٣٨٥.

(٢١٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٣، ص١٧٩؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج١٠، ص٢٩٥.

- منحتنا القصص صورة أقرب للواقع التاريخي في الحياة اليومية للشأن الاجتماعي، فقرأنا فيها مجموعة من الحقائق التاريخية عن الواقع الطبقي للمجتمع المصري في العصر المملوكي، تجسد هذا الواقع بين رصد تقلب الأوضاع بين الغني والفقر، والسلطة والنفوذ، والانحطاط والخضوع، والعدل والجور، والصلاح والفساد.
- أن طلب العطاء، من خلال القصص، كان مرتبطاً بجانب أخلاقي على درجة عالية من الأهمية، وهو إبعاد صاحب العطاء أو الحاجة عن إمكانية أن يرى الآخرون ذلّ السؤال في وجهه، في الوقت نفسه أصبحت وسيلة لاستجداء ذوي النفوذ للحصول على امتيازات قد يفشلوا في الحصول عليها إذا طُلبت مباشرة دون وسيط "قصة"، خاصة وأن كثير من القصص المرفوعة انتهجت أسلوبًا بلاغيًا يظهر فيها أن يكون المطلوب مذكوراً بالتلميح لا بالتصريح؛ لأن ذلك أدعى إلى استمالة قلب الخليفة أو المسؤول الذي تقدّم له القصة، الذي غالباً ما يكون من أصحاب الشعور بذاته السلطوية.
- وثقت لنا القصص بعض صور التمردات والانتفاضات الشعبية التي حظى الصراع الطائفي بأسبابه المختلفة بنصيب أكبر، كما أشارت إلى كثير من مفاسد الأمراء وطغيانهم وظلمهم في حق الرعية، حتى صار اغتيالهم باستخدام القصص كوسيلة مموه الحل الأمثل لنهاية شرورهم.
- ساهمت القصص بصورة فعّالة في الحفاظ أملاك الدولة من خلال مختلف الشكاوى التي تنبه الحكام، كذلك كانت الصوت المدوي لطلب الإغاثة من ولاة الأمر تجاه تجاوزات البعض في حق الرعية.
- حفظت لنا القصص بعض الأخبار عن الفقهاء، وعلى رأسهم القضاة ذو المكانة المهمة في منظومة السلطة باعتبارهم ملاذ الضعفاء من بطش المتجبرين أيًا كانت منزلتهم.
- أشارت الدراسة إلى أن أمر النظر في القصص لم يكن أمرًا عبسيًا، بل وظيفة ذات اختصاص محدد، تُسند إلى مَنْ يمتلك مؤهلات القيام بها؛ لأنها ذات أهمية خاصة في سياق بُعدها السياسيّ وفي إدارة الشأن العام في حياة الناس؛ فالقائم عليها يمثل حلقة وصل بين الحاكم والمحكوم، ويؤثر سلوكه على صياغة طبيعة العلاقة التي تقوم بين الطرفين من استقرار وقبول أو اضطراب ورفض.

قائمة المصادر والمراجع

أولًا: المصادر العربية

- ابن الأثير الجزري(أبو الحسن علي بن أبي الكرم)، (ت٦٣٠هـ/١٢٣٣م)، الكامل في التاريخ، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٧م.
- ابن إياس(محمد بن أحمد)، (ت٩٣٠هـ/١٥٢٤م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تح: محمد مصطفى، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣م.
- بدر الدين العيني(أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى)، (ت٨٥٥هـ/١٤٥١م)، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، عصر سلاطين المماليك، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٠م.
- ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف)، (ت٨٧٤هـ/١٤٧٠م):
  - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر،١٩٦٣م.
  - الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، ط٢، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٨م.
  - المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تح: محمد محمد أمين، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٦م.
  - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تح: محمد كمال عز الدين، ط١، عالم الكتب، ١٩٩٠م.
- التقي الفاسي (تقي الدين محمد بن أحمد الحسني)، (ت٨٣٢هـ/ ١٤٢٩م)، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تح: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
- التنوخي(المحسن بن علي بن محمد بن أبي الفهم)، (ت٣٨٤هـ/٩٩٤م):
  - الفرج بعد الشدة، تح: عبود الشالجى، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨م.
  - نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تح: عبود الشالجي، دار صادر، بيروت، ١٩٧٢م.
- ابن جماعة الكتاني(بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله)، (ت٧٣٣هـ/١٣٢٢م)، غرر البيان من لم يسم في القرآن، دراسة وتحقيق: عبد الجواد خلف، ط١، دار قتيبة، بيروت، ١٩٩٠م.
- ابن حبيب(الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر)،(ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م) تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تح: محمد محمد أمين، سعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣م.
- ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أحمد بن على بن محمد)، (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م):
  - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تح: محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٩٧٢م.
  - إنباء الغمر بأنباء العمر، تحقيق وتعليق: حسن حبشي، القاهرة، ١٩٦٩م.
  - ذيل الدرر الكامنة، تح: عدنان درويش، القاهرة، ١٩٩٢م.
  - رفع الإصر عن قضاة مصر، تحقيق: على محمد عمر، ط١، ١٩٩٨م.
- أبو حيان التوحيدي(علي بن محمد بن العباس)، (ت٤٠٠هـ/١٠١٠م)، البصائر والذخائر، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨م.
- ابن خلكان (أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد)، (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٠م.
- الدمِيري(كمال الدين محمد بن موسى)، (ت٨٠٨هـ/١٤٠٦م)، لامية العجم (وهو مختصر شرح الصفدي المسمى الغيث المسجم)، تح: جميل عبد الله عويضة، ٢٠٠٨م.
- الذهبي(شمس الدين محمد بن عثمان)، (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م):
  - سير أعلام النبلاء، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٦م.

- العبر في خبر من غبر، تح: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني، دار الكتب العلمية، بيروت،١٩٨٥م.

- السبكي(تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين)، (ت٧٧١هـ/١٣٧٠م):

- طبقات الشافعية الكبرى، تح: محمود محمد الطناحي، عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٩٣م.

- معجم الشيوخ، تح: بشار عواد معروف وآخرون، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٤م.

- السخاوي(شمس الدين محمد بن عبد الرحمن)،(ت٩٠٢هـ/١٤٩٧م) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢م.

- أبو سعد الآبي(منصور بن الحسين الرازي)، (ت٤٢١هـ/١٠٣٠م)، نثر الدر في المحاضرات، تح: خالد عبد الغني محفوظ، دار الكتب العلمية، بيروت،٢٠٠٤م.

- ابن سيده(أبو الحسن علي بن إسماعيل)، (ت٤٥٨هـ/١٠٦٦م)، المخصص، تح: خليل إبراهم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

- السيوطي (الحافظ جلال الدين عبد الرحمن)، (ت٩١١هـ/١٥٠٥م):

- نظم العقيان في أعيان الأعيان، المطبعة السورية الأمريكية، نيويورك، ١٩٢٧م.

- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط١، مصر، ١٩٦٧م.

- المحاضرات والمحاورات، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م.

- ابن شاكر الكتبي(محمد بن شاكر بن أحمد)، (ت٧٦٤هـ/١٣٦٣م)، فوات الوفيات، تح: إحسان عباس ، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٧٣م.

- ابن شاهين (زين الدين عبد الباسط بن أبي الصفاء)، (ت٩٢٠هـ/١٥١٤م)، نيل الأمل في ذيل الدول تح: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.

- ابن الشحنة(عبد البر بن محمد)، (ت٩٢١هـ/١٥١٥م)، البدر الزاهر في نصرة الملك الناصر، تح: ريتشارد مورتيل، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود،ع٢، مج١٤، ١٩٨٧م.

- الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك)، (ت٧٦٤هـ/١٣٦٣م):

- الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرناووط، تركي مصطفى، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت،٢٠٠٠م.

- أعيان العصر وأعوان النصر، تح: علي أبو زيد، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٨م.

- الصيرفي(الخطيب الجوهري على بن داود)، (ت٩٠٠هـ/١٤٩٥م)، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تح: حسن حبشي، دار الكتب، ١٩٧١م.

- ابن طولون(شمس الدين محمد بن علي بن خمارويه)، (ت٩٥٣هـ/١٥٤٦م)، إنباء الأمراء بأنباء الوزراء، ط١، تح: مهنا حمد المهنا، دار البشائر الاسلامية، بيروت، ١٩٩٨م.

- ابن العراقي(ولي الدين أبي زرعة أحمد بن عبد الرحيم)، (ت٨٢٦هـ/١٤٢٣م)، الذيل على العبر في خبر من غبر، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٩م.

- العصامي(عبد الملك بن حسين بن عبد الملك)، (ت١١١١هـ/١٧٠٠م)، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، تح: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

- ابن العماد الحنبلي(عبد الحي بن أحمد بن محمد)، (ت١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٩٨٦م.

- ابن الغزي(نجم الدين محمد بن محمد)، (ت١٠٦١هـ/١٦٥١م)، الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، تح: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.

- ابن فارس(أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني)، (ت٣٩٥هـ/١٠٠٥م)، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م.
- أبو الفدا (عماد الدين إسماعيل بن على)، (ت٧٣٢هـ/١٣٣٢م) المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، ١٩٠٧م.
- ابن الفرات(ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم)، (ت٨٠٧هـ/١٤٠٥م) تاريخ ابن الفرات، تح: قسطنطين زريق، المطبعة الأمير كانية، بيروت، ١٩٤٢م.
- القلقشندي(أبو العباس احمد بن على)، (ت٨٢١هـ/١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٢م.
- ابن كثير(أبو الفدا إسماعيل بن عمر)، (ت٧٧٤هـ/١٣٧٣م)، البداية والنهاية، دار الفكر، ١٩٨٦م.
- مجد الدين ابن الأثير(أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد)، (ت٦٠٦هـ/١٢١٠م) النهاية في غريب الحديث والأثر، تح: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، لبنان، ١٩٧٩م.
- ابن مسكويه (أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب)، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، (ت٤٢١هـ/١٠٣٠م)، تح: أبو القاسم إمامي، طهران، ط٢، ٢٠٠٠م.
- المقريزي(تقي الدين أحمد بن على)، (ت٨٤٥هـ/١٤٤٢م):
  - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.
  - السلوك لمعرفة دول الملوك، تح: محمد عبد القادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.
  - المقفى الكبير، تح: محمد اليعلاوي، ط٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٦م.
- ابن منظور(أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن على)، (ت٧١١هـ/١٣١١م)، لسان العرب، دار المعارف، ١٩٩٤م.
- النعيمي(عبد القادر بن محمد)، (ت٩٢٧هـ/١٥٢١م)، الدارس في تاريخ المدارس، تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.
- النويري(شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)، (ت٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تح: نجيب مصطفى فواز، وحكمت كشلي فواز، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م.
- ابن هلال العسكري(الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد)، (ت٣٩٥هـ/١٠٠٥م)، الفروق في اللغة، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط٥، ١٩٨٣م.
- ابن واصل(محمَّد بن سالم بن نصرالله بن سالم)، (ت٦٩٧هـ/١٢٩٨م)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج٥، تح: حسنين محمد ربيع، تقديم سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٩٥٧م.
- ابن الوردي(عمر بن مظفر بن عمر)، (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م، ط١، ١٩٩٦م.
- اليوسفي(موسى بن محمد بن يحيى)، (ت٧٥٩هـ /١٣٥٨م)، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تح: أحمد حطيط، ط١، عالم الكتب، ١٩٨٦م.
- اليونيني(قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد)، (ت٧٢٦هـ/١٣٢٦م)، ذيل مرآة الزمان، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٢م.

ثانيًا: المراجع العربية

- إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، ط٤، مكتبة الشروق، ٢٠٠٤م.

- أحمد عثمان رفه، بنو جماعة (الجماعات) نسب واعلام، دار الجنان للنشر والتوزيع، ٢٠٢٠م.
- أميرة الشيخ رضا، الفاطميون تاريخهم وآثارهم في مصر، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٣م.
- البيومي إسماعيل الشربيني، النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك، الهيئة العامة للمصرية للكتاب، ١٩٨٨م.
- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، نشر جامعة بغداد، ط٢، العراق، ١٩٩٣م.
- حسان حلاق، وعباس صباغ، المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٩١م.
- حسن أحمد عبد الجليل بطاوي، أهل العمامة في مصر: عصر سلاطين المماليك، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠٧م.
- حياة ناصر الحجي، أحوال العامة في حكم المماليك(٨٧٦-٤٨٧هـ/٩٧٢١-٢٨٣١م): دراسة في الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية، دار القلم للنشر والتوزيع, ١٩٩٤م.
- رينهارت دُوزِي، تكملة المعاجم العربية، ترجمة وتعليق: محمد سليم النعيمي، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ط١، ٢٠٠٠م.
- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، دار المعارف، مصر، ١٩٩٥م.
- صلاح الدين محمد نوار، الطوائف المغولية في مصر: تأثيراتها العسكرية والسياسية والاجتماعية واللغوية والعمرانية في عصر دولة المماليك البحرية، (٦٥٨-٧٨٣هـ/١٢٦٠-١٣٨١م)، منشأة المعارف بالإسكندرية, ١٩٩٦م.
- عبد الرحمن زكي، بناة القاهرة في ألف عام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦م.
- عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي لدولة السلاطين المماليك في مصر دراسة تحليلية للازدهار والانهيار، مكتبة الأنجلو مصرية، ١٩٨٨م.
- على مبارك، الخطط التوفيقة الجديدة، المطبعة الأميرية الكبرى، القاهرة، ١٣٠٦هـ.
- عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٥٧م.
- عودة رافع الشرعة، المجتمع الشامي في العصر المملوكي، ٢٠١٩م.
- فؤاد صالح السيد، معجم الذين نسبوا إلى أمهاتهم، بيروت، ١٩٩٦م.
- لويس شيخو، وزراء النصرانية وكُتابها في الإسلام(٦٢٢-١٥١٧م)، تح: الأب كميل حشيمة اليسوعي، المكتبة البولسية، لبنان، ١٩٨٧م.
- محاسن محمد وقاد، مصر في العصر المملوكي: دراسات حضارية، مصر العربية للنشر والتوزيع, ٢٠٠٦م.
- محمد أحمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر، دمشق، ١٩٩١م.
- محمد الريشهري، موسوعة الإمام على بن أبي طالب في الكتاب والسنة والتاريخ، دار الحديث للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠١م.
- محمد الزحيلي، العز بن عبد السلام سلطان العلماء وبائع الملوك الداعية المصلح القاضي الفقيه الأصولي المفسر(٥٧٧-٦٦٦هـ)، دار القلم دمشق، ١٩٩٢م.
- محمد الششتاوي، متنزهات القاهرة في العصرين المملوكي والعثماني، دار الآفاق العربية القاهرة، ط١، ١٩٩٩م.
- محمد سالم الطراونة وسحر عبد المجيد، أحوال أهل الذمة في مصر في خلافة الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي، دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٩م.
- محمد كامل حسين، الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربي إلى آخر الدولة الفاطمية، منشورات البندقية، ط١، القاهرة، ٢٠١٦م.

- محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر(٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)دراسة تاريخية وثائقية، دار النهضة العربية، ١٩٨٠م.
- محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، المطبعة النموذجية، القاهرة، ١٩٦٢م.

ثالثًا: الدوريات العلمية

- أنستاتس الكرملي، أدب العصر المملوكي، مجلة لغة العرب، مج٨، بغداد، ١٩٣٠م.
- حسن محمد عبد الهادي، ترجمة ابن فضل الله العمري(شهاب الدين أحمد بن يحيى)، مجلة جامعة الأزهر بغزة، سلسلة العلوم الإنسانية،ع١، مج١٢، ٢٠١٠م.
- حياة ناصر الحجي، الأمير قوصون: صورة حية لنظام الحكم في سلطنة، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت ، مجلس النشر العلمي، ع٣٢، مج٨، ١٩٨٨م.
- خالد عبدالله يوسف، أهل العلم والأدب من سلاطين وأمراء دولة المماليك:(٦٤٨-٩٢٣هـ /١٢٥٠-١٥١٧م)، آفاق الثقافة والتراث, ع٩٣، مج٢٤, ٢٠١٦م.
- زينب أحمد علي أبو علي، الخانقاة الشيخونية (٧٥٦-٩٢٣هـ/١٣٥٥-١٥١٧م)، كلية الدراسات الإنسانية، جامعة الأزهر، ع٢٤، مج١، ٢٠١٩م.
- ساميه على مصيلحي، صفي الدين عبدالله بن علي المعروف بابن شكر الوزيرالأيوبي(٥٤٨-٦٢٢هـ/١١٥٣-٢٢٥١م)، المجلة التاريخية المصرية، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مج٤٥، ٢٠٠٧م.
- السعيد شعبان الدسوقي إبراهيم، الأسلوب القصصي وتوظيفه في الخطاب الدعوي، حولية كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية، جامعة الأزهر، ع٣٣، ٢٠١٤م.
- سماح عبد المنعم السلاوي، شرف الدين النشو والسلطان الناصر محمد بن قلاوون تآلف ثم انتقام، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ع٢، ٢٠١٢م.
- سند أحمد عبد الفتاح، الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري(إشكالياته في ضوء المصادر المملوكية)، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، الحولية ٣٨، سبتمبر ٢٠١٧م.
- عبد الرحمن عبد الحميد عبد العزيز، أثر ناظر الدولة السياسي على الوزارة في العصر المملوكي(٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)، حولية كلية اللغة العربية بالزقازيق، ع٣٤، مج٣، ٢٠١٤م.
- عثمان إسماعيل الطل:
  - الأمير سنجر بن عبد الله الجاولي الشافعي ومنجزاته العمرانية في الشام(٦٥٣-٧٤٥هـ/١٢٥٥-١٣٤٥م)، مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية، ع١، مج٢٣، ٢٠١٥م.
  - علاقة المماليك مع القبائل العربية في مصر(٨٦٥-٩٢٣هـ/١٤٦٠-١٥١٧م)، كلية الآداب، جامعة القدس، ع٢٧، ٢٠١٩م.
- علي أحمد، القضاء في عصر المماليك، مجلة دراسات تاريخية، ع٨٧-٨٨، ٢٠٠٤م.
- كريم محمد عبد الحميد حمزه، مدرسة وخانقاة الأمير مغلطاي الجمالي بحي الجمالية : دراسة أثرية تاريخية حضارية، مجلة اتحاد الجامعات العربية للسياحة والضيافة، كلية السياحة والفنادق، جامعة قناة السويس، ع١، مج١١، ٢٠١٤م.
- محمد حسين سلامة محاسنة، محاولة الناصر أحمد نقل عاصمة دولة المماليك من القاهرة إلى الكرك (٧٤٢هـ/١٣٤١م)، مجلة المنارة للبحوث والدراسات، جامعة آل البيت, ع٢, مج١٧، ٢٠١١م.
- محمد محمد مرسى على، نظر المظالم منذ بداية العصر الإسلامي حتى نهاية العصر المملوكي في ضوء البرديات العربية، مجلة مركز الدراسات البردية والنقوش، جامعة عين شمس، مصر، مج٣٣، ٢٠١٦م.

- محمود محمد الجبارات، وقفية منجك باشا(٧٨٤هـ/١٣٨٢م) دراسة وتحقيق، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، ع٢، مج٣، ٢٠٠٩.
- مسعد سيد محمد كتبي:
- الأمير المملوكي يلبغا السالمي حياته وجهوده (ت٨١١هـ/١٤٠٨م)، مجلة كلية اللغة العربية، المنصورة، ع ٣٥، مج٢، ٢٠١٦م.
- ناظر الخاص السلطاني النشو وسنواته السبع العجاف(٧٣٢-٧٤٠هـ/ ١٣٣٢-١٣٣٩م)، مجلة كلية التربية، جامعة كفر الشيخ، ع٥، مج٥، ٢٠٠٨م.
- مشتاق كاظم عاكول المياح، محن العلماء بمصر في العصر المملوكي تقي الدين ابن بنت الأعز (ت٦٩٥هـ/١٢٩٥م) أنموذجًا، عدد يناير- مارس، مج٤٦، ٢٠١٨م.
- نجلاء مصطفى شيحة، وكيل بيت المال لسلطنة المماليك(٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)، حولية كلية الآداب، جامعة بني سويف، مج ٣، ٢٠١٤م.

رابعًا: الرسائل العلمية

- أحمد مصطفى رشيد، إشكاليات نظام الحكم وولاية العهد في دولة المماليك البحرية(٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م)، أطروحة ماجستير، جامعة النجاح، فلسطين، ٢٠٠٢م.
- خالد محمد الحريري، قاضي القضاة ودوره في دولة المماليك البحرية(٦٥٨-٧٨٤هـ/١٢٦٠-١٣٨٢م)، أطروحة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق، ٢٠١١م.
- عبد الخالق حسين محمد، النظم القضائية بمصر في عصر سلاطين المماليك ،أطروحة دكتوراه، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٩٨١م.
- عبد الغفور غلام عبد الغفور، جهود القاضي بدر الدين بن جماعة في التفسير دراسة ونقدًا، أطروحة ماجستير، جامعة العلوم الإسلامية العالمية، كلية الدراسات العليا، الأردن، ٢٠١٢م.
- محمد زارع الأسطل، الحياة الفكرية والثقافية في مدينة القدس في العهد المملوكي(٦٤٨-٩٢٣هـ /١٢٥٠-١٥١٦م)، أطروحة ماجستير، الجامعة الإسلامية بغزة، ٢٠١٤م.
- نسمه عمر سعد المغربي، الوظائف الدينية في مصر عصر المماليك الجراكسة وظيفة القضاء نموذجًا(٧٤٨-٩٢٣هـ/١٣٤٧م-١٥١٧م)، أطروحة ماجستير، كلية دار العلوم، جامعة المنيا، ٢٠١٩م.

خامسًا: المراجع الأجنبية

Abd al-Raziq, Ahmad, Le vizirat et les vizirs d'Égypte au temps des Mamluks, Annales islamologiques, vol. 16, 1980.

Al-Farran, Abdel-Hamid Jamal, Texts from the Sheikhdom of Fakhr Al-Din Ibn Al-Kwaik Fakhr Al-Din Muhammad Bin Abdul Latif Bin Al-Kwaik (T: 769 AH /1368 AD), International Journal of History and Cultural Studies, V6, N4, 2020.

Anne F. Broadbridge, Academic Rivalry and the Patronage System in Fifteenth-Century Egypt; al-'Ayn, al-Maqrz, and Ibn Ḥ ajar al-'Asqalan, Mamluk Studies Review,Vol. 3,1999.

D.S. Richards, Egypt and Syria in the Early Mamluk Period: An Extract from Ibn Faḍl Allāh Al-'Umarī's Masālik Al-Abṣār Fī Mamālik Al-Amṣā ,Routledge, 2017.

Fatḥi, Raga Maḥmud, Duties of Vizier during the Mamlūk Period (648-923 AH / 1250-1517 AD), Bulletin of the Center Papyrological Studies, Ain-Shams University, V.35, 2018.

G . Wiet, Les Biographies du Manhal Safi , le Caire,1932.

Jorgen Nelson, Mazalim and Dar Al-'adl under the early Mamluks, the Muslim World, Vol. LXVI, No. 2, April, 1976.

Rasheed. Jiyan Salih, Ali. Sipan Hasan, Izz Al Din ibn Jama'ah (694-767 H /1294-1365 AD) as an example of the most Prominent Figures of the Ibn Jama'ah Clan University of Duhok, Kurdistan, Vol. 1 No. 4 ,2021.

Journal of Tourism, Hotels and Heritage (JTHH)

Vol. 4 No. 1, (2022) pp 155-196.

Journal Homepage: https://sjs.journals.ekb.eg

A New Approach in Analyzing the Correspondences' Instrumentation in Mamluk Egypt: 'A Case Study of Stories' (648-923 AH /1250-1517 AD)

ARTICLE INFO

Keywords:
Correspondences'
Instrumentation
Mamluk Egypt
Stories

Abstract

Since the initial emergence of Islamic civilization, the societal mind retained its traditional practices, even if the tool differed. In our modern history, we see a diversity in all written correspondence that relied on the extent of the development that occurred in human thought, it was able to reproduce all the first habits, including those media such as: The sheets, letters, and stories on which the study focused on that including: political practices, and features of societal communication and participation, stemming from the rules of culture within the Egyptian civilization in the Mamluk era.

The current study focused on the historical era, which begins with the linguistic and idiomatic definition of the stories, then the historical beginning of the use of stories in Islamic Egypt until the establishment of the Mamluk state, in which the use of stories became an essential part in many of its aspects, it had the effect of documenting the class reality of the Mamluk society, while responding to the desires and needs of those different classes.

It also documented some of the causes of popular rebellions and uprisings and emphasized its participation in matters of governance and administration. The study also indicated how the stories move between the special class, providing a clear picture of their general form, where and how they are presented to the person responsible for looking into them.